المقالة الثالثة

أدب أبي العلاء

تدلُّ المقالةُ الأولى على أنَّ الحياةَ العامةَ فى عصر أبى العلاء ، لم تكنْ شيئًا تطمئنُّ إليه النفسُ ، أو يرضَى به الرجلُ الحكيمُ ، لفساد ما كانَ فيها من سياسة وخُلق ، ومن تقسيم ثروة وتأثير دين . وتدلُّ المقالةُ الثانيةُ على أن الحياةَ الخاصَّة لأبى العلاء ، لم تكنْ خيرًا من الحياة العامة ؛ فقد مُزجَت بألوان من المصائب وعثور الجَدّ ، وعلى أنَّ الرجلَ قد أحسنَ الدرس ، وأجاد التعلمَ ، ورحلَ إلى مدن مختلفة ، وأقامَ فى بيئات متباينة ، وكان له قلبٌ ذكيٌّ ، وأنف حميّ ، وبصيرة ثاقبةٌ ، وذوقٌ سليمٌ . فهذه المؤثراتُ كلها قد اشتركَتْ فى تأليف التراث الأدبىّ لأبى العلاء . فإذا وصفنا هذا التراثَ ، كانَ من الحقّ علينا أن نحللهُ إلى عناصره ، ونردَّه إلى مصادره . ونحن فاعلون إن شاءَ اللهُ مع حرصنا على الإيجاز والاقتصاد .

لأبى العلاء شعرٌ ونثرٌ . وقد كان يعتقدُ أنه شاعرٌ ، كما كان يعتقدُ أنه كاتبٌ . ولا شكَّ فى أنه قد نظمَ كثيرًا من الشعر ، وأنَّ ما ضاعَ من نظمه أكثرُ مما بقَى ؛ فإنه بدأ يعانى صناعةَ القريض فى الحادية عشرةَ من عمره ، وقد نيَّفَ على الثمانينَ وما ترك القريضَ ، وما أعرضَ عنهُ . فمن المعقول أن يُنتجَ هذا العمرُ الطويلُ والعملُ الكثير شعرًا كثيرًا ، على أنه يحدّثُنا عن نظم قد ضاع ، ولم يصلْ إلينا منه شىءٌ ؛ فقد ذكر أن كتابه المعروفَ باسم « استغفر واستغفرى » يشتملُ على عشرة آلاف بيت . ونحن لا نعرفُ من هذا الكتاب إلاَّ اسمَه . ويحدثُنا ناصرى خسرو فى رحلته : أن أبا العلاء قد نظَم من الشعر مائة ألف بيت ، وذلك فى سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة ؛ أى قبلَ موت الشاعر بعشر سنوات . ولا ريب أنه قد نظمَ بعد ذلك الشىء الكثيرَ . ومع ذلك فليس لدينا من نظمِه الآن إلاَّ شىءٌ لا يقاسُ إلى ما يروى التاريخُ من كثرة نظمه .

والأمرُ فى نثره كالأمر فى شعره ، بل هو أشدُّ غرابةً ، وأدعى إلى العجب ، فإنا لا نجدُ من نثره إلا رسالةَ الغفران ، ورسالةَ الملائكة ، وطائفةً من صغارِ الرسائل . فإذا سألنا التاريخَ عما كتبَ أبو العلاءِ أنبأنا بالشىءِ الكثيرِ ، فإن ديوانَ رسائله الخاصةِ ، كانَ ثمانمائة كراسة ، كما يحدثُنا أبو العلاء نفسُه . فلو فرضنا الكراسةَ — كما فرضها مرجليوث — ورقتين اثنتين ، لكانت رسائلهُ ستمائة وألف ورقة : أى مائتين وثلاثة آلاف صفحةٍ ، مع أن المطبوعَ منها بالشامِ لا يتجاوزُ مع شرحِه ستًّا وثلاثين ومائةَ صفحةٍ ، فأين ذهبَ سائرُها ؟ سؤالٌ يستعجمُ التاريخ عن جوابه ، ويعجزُ الزمانُ عن بيانه . على أن لأبى العلاء كتبًا أدبيةً ذهبت جملةً ، ولم يعرف التاريخُ إلا أسماءَها ، ككتابِ الصَّاهل والشاحج ، وكتاب تاجِ الحرةِ ، وكتاب الفصولِ والغاياتِ ، وغيرها من الكتبِ ، التى لا نشك فى أنها كانت تعيننا على فهمِ القيمةِ الكتابيةِ ، لأبى العلاء ، لو سمحَ بها الزمانُ . على أنَّا لم نبدأ هذه المقالةَ لنأسفَ على ما فاتَ ، بل أردْنا بها أن نصفَ ما فى أيدينا ، فلندعْ ذكرَ ما لا سبيلَ إليه ، ولنبحثْ عما هو موجودٌ .

شعره

ليس لدينا من شعر أبى العلاء إلاَّ ثلاثةُ دواوينَ : أولُها : سقطُ الزندِ ، والمشهورُ أنه يشتملُ على شعرِه أيامَ الشبابِ ، وإن كان ذلك موضعَ بحث ، فإنَّا نجدُ فيه قصائدَ نُظمَتْ فى بغدادَ ، وبعد رجوعه إلى المعرَّةِ ، بل نجدُ قصيدةً نظمَتْ سنة أربعَ عشرةَ وأربعمائة ، وهى الطائيةُ التى بعثها إلى خازنِ دارِ العلمِ ببغدادَ . وإنما نعيِّن لها هذا التاريخَ ، لأن فيها ذكرَ الفتنةِ التى أذكاها بالشام صالح بنُ مرداس ليملكَ حلبَ ، وحسَّانُ بن مفرج ليملكَ الرملة ، وسنانُ بن عليان ليملك دمشق ، وقدمنا تاريخَ ذلك كله فى المقالة الأولى . فهذه القصيدةُ قد نظمَها أبو العلاء وله خمسون سنة . ومن الظاهرِ أن ليستْ هذه بسنِّ الشبابِ ، غيرَ أن أبا العلاء نفسَه ، هو الذى حدَّثَنا : بأن سقطَ الزند

يشتملُ على أشعارٍ نُظمَت فى أيامِ الصّبا ، وهو إنما خبرَنا بذلك فى ثبت كتبه ، الذى لا نشكُّ فى أنه وضعَ بعد سنةِ أربعين وأربعمائة ، فلا شك فى أن أبا العلاء إنما لاحظَ أن شعرَ الشبابَ فى سقْطِ الزند ، أكثرُ من شعرِ الكهولةِ والشيخوخةِ ، فحكم عليه هذا الحكم ، ولعلَّ الكتابَ قد جُمعَ بعد رجوع أبى العلاء من بغدادَ ، ثم زيد عليه ما جدَّ من الشعرِ .

الثانى : الدرعياتُ ، وهو ديوانٌ ، صغيرٌ ، يشتملُ على أشعارٍ وُصفَت فيها الدّرعُ خاصةً ، وقد طبعَ بمصرَ ملحقًا بسقْطِ الزند ، ونصَّ فى ثبت الكتب على أنه كتابٌ مستقلٌ ، أُلحِقَ بسقْطِ الزند . ولقد حاولنا أن نعللَ عنايةَ أبى العلاء بالدُّروعِ خاصّةً ، فلم نستطع أن نفهمَ لذلك سببًا ، إلاَّ أن يكونَ قد حفِظَ فى وصفِ الدرعِ شيئًا كثيرًا ، فأراد أن يظهرَ مقدرَتهُ الفنيَّةَ بوضع ديوانٍ لها خاصَّة . وليسَ من البعيد أن تكونَ بين الدرعياتِ وبين هذا القانون الصارم الذى أخذَ به نفسَه ، واتّقى به الألمَ والجزعَ صلةٌ ما ، ولكن ذلك على ما فيه من تكلُّفٍ يحتاجُ إلى النصِّ التاريخىِّ . على أن الدرعياتِ لم تُنظَم إلاَّ فى الطور الثالثِ من حياته ، وذلك ما لم نُوفَّق إليه .

الثالث : اللزوميات . وهى أكبرُ الدواوينِ الثلاثة ، وأجلُّها خطرًا ، نظمت كلُّها فى الطورِ الثالثِ ، فمثلَت حياةَ عقلِه ، ووجدانه وخلقِه أحسنَ تمثيل . ونحن واصفون كل ديوان من هذه الدواوين الثلاثة على حدة ، ثم نتبعُ ذلكَ بكلمة عامَّة فى منزلة أبى العلاء من الشعرِ ، ومكانته من نَظمِ القريض .

سقطُ الزند

أبو العلاءِ هو الذى رتَّب سقطَ الزندِ ، كما أنهُ الذى رتَّبَ اللزومياتِ والدرعيات والرسائلَ ، وقد كانَ الرجلُ على كلامهِ شديدَ الحرصِ ، وبآثاره عظيمَ العنايةِ كأنه كان يخشى أن يكونَ بغضُ الناسِ له ، وشكهم فى دينه ، حائلاً بينهم وبين جَمْعِ كلامهِ وتدوينهِ . ولكنهُ لم يرتِّب سقط الزند

ولا غيرَه من كتبه ترتيبًا تاريخيًّا ولا فنيًّا ، فخلطَ المدحَ ، والوصفَ ، والنسيبَ ، والرثاءَ ، ولم يعين تواريخَ القصائدِ ، ولا مواقيتَها ، ولكنَّا مقسمون شعرَه فى سقطِ الزندِ باعتبارين مختلفين : أحدُهما باعتبارِ التاريخِ ، والآخر باعتبارِ الموضوعِ .

القسم الأوَّل

نظمَ أبو العلاء شعرَه منذ بلغَ الحاديةَ عشرة ، وبقىَ ينظمهُ إلى أنْ مات . وإذ كنا قد جعلنا حياتهُ أطوارًا ثلاثةً : أحدُها طورُ الصِّبا وينتهى سنة ثلاثٍ وثمانينَ وثلثمائة ، حين بلغَ العشرينَ ، والثانى طورُ الشبيبةِ ، وينتهى سنةَ أربعمائة ، حين عادَ من بغداد ، واعترف بانقضاء شبيبته فى رسالته إلى أهلِ المعرَّة . والثالثُ طورُ الكهولةِ والشيخوخةِ . وينتهى بموته ، فلا بدَّ من أن ينقسمَ شعرُه إلى هذه الأطوارِ .

ولئن كانَ تعيينُ التاريخِ لقصائده كلها فى سقطِ الزند ، يحتاجُ إلى كثير من العناء ، فإنَّ سقطَ الزند نفسَه ، قد عينَ لنا تاريخَ قصائدَ بعينِها ، نستطيعُ أن ندرسَها ، فنعرفَ منها تأثرَ شعر الرجل ، بما اختلفَ عليه من أطوارِ الحياةِ . فمن شعرهِ فى الطور الأولِ رثاؤُه لأبيه ، لأنه نظمهُ فى الرابعة عشرة من عمرهِ . ومن شعرهِ فى الطورِ الثانى ما كتبهُ إلى أبى حامد الإسفراييىنى ، وما تشوَّقَ به إلى المعرَّةِ وهو بالكرخِ ، وما رثى به أبا الشريفين ، الرضىَّ والمرتضى ، وما ودَّع به بغدادَ ، وما بكىَ به على أمه . ومن شعرهِ فى الطورِ الثالثِ ما كتبهُ إلى البغداديِّين بعد رجوعهِ من العراقِ . وفيه قصيدةٌ نظمت سنة أربعَ عشرة وأربعمائة ، وهى الطائيَّةُ التى بعثَ بها إلى خازنِ دارِ العلمِ ببغداد . وقدَّمنا الإشارةِ إليها غيرَ مرة .

ولقد كنَّا نودُّ أن ندرسَ هذه القصائدَ درسًا مفصَّلاً ، حتى تكونَ أحكامُنا على الرَّجُل ظاهرةَ الأدلَّةِ ، واضحةَ البراهينِ . ولكنَّ ذلك شىءٌ يطولُ بهِ القولُ ، ويخرجُ من القصدِ . وقد قدَّمنا فى المقالةِ الثانيةِ وصفَ رثائه لأبيه ، وقصيدتهُ إلى الإسفراييىنى . وحسبُنا أن نسطرَ هنا نتائجَ درسِنا المفصَّل .

* * *

فأمَّا شعرُه فى طورِ الحداثةِ فتكثرُ فيه المبالغةُ ، ويظهرُ فيه التكلفُ ، وتنقصُهُ متانةُ اللفظِ ، ورصانةُ الأسلوبِ ، وإتقانُ المعنَى . ولا يكادُ الباحثُ يتوسَّمُه ، حتى يرَى فيه سذاجةَ الطفلِ ، وعبثَ الوليدِ ، وحسبُك أن تنظرَ إلى قولهِ فى رثاء أبيه :

نقِمتُ الرضَا حتى على ضاحكِ المزنِ فلا جادَنى إلاَّ عبوسٌ من الدجنِ

وترجعُ إلى ما قدمناه من نقده .

والتقليدُ فى شعر الحداثةِ ظاهرٌ ، والحرصُ على المحاكاة واضحٌ ، والكلَفُ بإظهار التفوُّق والنبوغ ، يعلنُ نفسَه إلى الناسِ ؛ لذلك لا يكادُ يخطرُ له الخاطرُ القيِّمُ حتى يذهبَ التكلفُ بقيمتهِ . فإن أردتَ الدليلَ على ذلك فانظرْ إلى قوله :

ونادبة فى مسمعى كل قينـةٍ تغـرِّدُ باللحنِ البرىءِ من اللَّحن

فهذا المعنى فى نفسه جميلٌ ظريفٌ ، ولكنه فى هذا البيت نىءٌ لم ينضجْ وقد شانَه هذا الجناسُ المتكلَّفُ ، والبديعُ المتعملُ ، فانظر إليه حين نضِج عقله ، واشتدت مرَّتهُ : كيف أدَّى هذا المعنى نفسَه فى أعذب لفظ ، وأجملِ صورة ، وأصفَى أسلوب ، فقالَ :

أبكَتْ تلكمُ الحمامةُ أم غنَّـ ـتْ على فرعِ غصنِها الميَّادِ

ألم ترَ إلى هذا الاستفهامِ : كيف يعلِن الشكَّ ويخفى اليقين ؟ وكيف ينِم على استهزاءِ الشاعرِ بالحياةِ ، ويأسهِ من الصَّفوِ ؟ وكيف يمثل قدرتَه على اختراع الصورِ ، وحسنِ التعريضِ ؟ ما بالهُ فى هذا البيت قد شكَّ فى تغريدِ الحمامةِ ، فلم يدرِ أبكاء هو أم غناء ؟ وقد كان يجزِم فى البيتِ الأول بأن غناء القينة بكاءٌ ، وترنمها إعوالٌ ، أليس ذلك لأن المعنى قد نضِج فى نفسه ، حتى ثبَتَ عليه اعتقادهُ وحتى بسط سلطانَه على الحيوان ، بعد أن مدَّ ظله على الإنسان ؟ ثم انظر كيف وقف الحمامةَ على الغصنِ الميَّاد ، فى الروضة

النضرةِ ذاتِ الزَّهر المبتسم ، والنورِ المؤْتَلِق ، ثم ظنّ بألحانها الظنونَ ، فى حال ما يشكُ الناسُ فى أنها حالُ جذل وطرب ، وآيةُ بشر وابتهاج .

هذا يمثلُ لك طفولةَ شعر أبى العلاء فى رثاء أبيه ، واكتهاله فى رثاء أبى حمزة الفقيه الحنفىِّ . وسنبين رأينا فى هذه القصيدةِ حين نعرضُ لها .

شعره فى الطور الثانى

فأما شعره فى الطور الثانى فتكادُ تغلبُ عليه المبالغةُ ، ولكن حظَّه من التكلُّفِ ينقصُ ، وقسطَه من المتانة يزيدُ ، وتمثيلَه لعواطفِ الشاعر يَصحُّ ، فإذا جاوزَ الخامسةَ والثلاثين ورأيناه ببغدادَ بدأنا نودِّع المبالغة فى شعره ، ونستقبلُ الاقتصاد فى اللفظ والمعنى جميعًا ، ورأينا ظاهرةً ينبسطُ ظلُّها على شعر الرجلِ ، وهى التجملُ بالاصطلاحاتِ العلمية . ألم ترَ إلى افتنانه فى استعارة الاصطلاحاتِ الفقهيَّة ، حتى خاطبَ الفقيهَ الشافعىَّ فقال :

وربَّ ظُهرٍ وصَلناهَا على عَجَل ... بعصرِها فى بعيدِ الوِرْدِ لمَّاعِ
بضَربَتينِ لِطُهرِ الوجهِ واحدةٌ ... وللذراعَينِ أخرى ذاتُ إسراعِ
وكم قَصَرْنا صَلاةً غيرَ نافلة ... فى مَهْمَهٍ كصَلاةِ الكشف شَعْشَاعِ
وما جَهَرْنا ولم يصدَحْ مؤذِّنُنا ... من خوفِ كلِّ طويلِ الرُّمح خدَّاعِ
فى مَعشَرٍ كجِمارِ الرمْى أجْمَعُها ... ليلاً وفى الصبح ألقيها إلى القاعِ

أولم ترَ إليه كيف أحسنَ استعارةَ الاصطلاحاتِ حين ودَّع أهل بغدادِ فقال :

فدونكم خفض الحياةِ فإنَّنا ... نصبْنا المطايا فى الفلاةِ على القطعِ

فانظر إلى هذا البيتِ : كيف جمعَ إلى التظرُّف باصطلاحات العلم دلالةً على الحسرةِ بفراق بغدادَ وحب الخيرِ لأهلها ، فى أحسنِ لفظٍ وأرقِّ أسلوب ، ثم انظر إلى مطلعِ هذه القصيدةِ كيف استعارَ فيه الاستعاراتِ الدينيةَ ، ودل بهِ على التولُّه والتفجع فقال :

نبيٌّ من الغربان ليسَ على شرع ينبئُنا أن الشعوبَ إلى صدعِ
أصدقهُ فى مرية وقد امترَت صحابةُ موسَى بعــد آياتهِ التسع

فهذان البيتان يمثلان عقله ووجدانهُ معًا ، ثم يمثلانِ مع ذلك ما ورث من آداب الجاهليةِ وما حفِظ من علومِ الإسلام ، وانظر إلى قوله يتشوَّق إلى المعرَّة :

فيا برقُ ليسَ الكرخُ داري وإنمَّا رمانى إليها الدهرُ منــذ ليالِى

وقوله فى قصيدة أخرى :

إذا سألت بغدادُ عنِّى وأهلُهــا فإنى عن أهل العواصمِ سئّالُ

كيفَ يمثلانِ حنينَ الشاعر إلى بلده ، وكلَفَه بوطنه القديمِ .

فى هذا الطور نظم أبو العلاء أكثرَ ما يشتملُ عليه سقطُ الزند من الشعرِ ، ولا سيما المدح الذى لم يقصد به إلا تمرين القريحةِ ، كما قال فى المقدمةِ . وإنما نحكم هذا الحكم ، لأنَّا نجدُ فى هذا الشعر متانةً قصرَ عنها شعرُه الأول ، ومبالغةً جلَّ عنها شعرُه الثالثُ ، ومعانىَ لا تلائمُ ناشئًا يقرزم[1] ، ولا توافقُ فيلسُوفًا يتجنبُ الكذبَ والمينَ ، ويعرِضُ عن المنَى والآمال . فمن ذلك قوله فى القصيدةِ الأولى من سقط الزند يصف برقَ المعرَّةِ :

سرَى برقُ المعرَّة بعدَ وهْنٍ فباتَ بِرامَة يصفُ الكلاَلاَ
شَجَا رَكْبًا وأفراسًــا وإبْلاً وزادَ فكادَ أنْ يَشجو الرِّحالاَ

وقوله يصف السيف :

يُذيبُ الرعبُ منه كلَّ عَضْبٍ فلولاَ الغِمْــد يُمسِكه لَسَالاَ

فانظر كيف انتهت به المبالغة إلى الإحالةِ ، فزعم أن البرْق كاد يشجو الرحالَ ، وأن الخوف يذيبُ السيوفُ فى أغمادِها ، حتى لو لم تكن مغمدةً لسالَت . وفى هذا البيتِ مبالغةٌ من وجهين : أحدُهما وصفَها بالرُّعبِ ، والآخرُ وصفَها بالذَّوبِ ، وفيه قصورٌ لا يُغتفَرُ ؛ فقد كان من الحقِّ عليه حين عمد إلى المبالغةِ أن يرعَى عهدَها ، ولا يَميل بها إلى الإخلالِ ، ولكنه زعم أن

(١) القرزمة الابتداء بقول الشعر .

السيوفَ يذيبها الرعبُ وهى فى الأغماد ولولاها لسالت فما عسى أن تكونَ حالها إذا جُرِّدَت نصالها؟ ألعلَّها تسيلُ حتى لا يبقَى فى أيدى أصحابها إلا مقابضُها؟ فإن كان ذلك فهى الإحالةُ المنكرةُ ، والتقصيرُ القبيحُ ، إذ يجبُ أن يكون بينَ الرُّعب تحسُّه السيوفُ فى الأغمادِ ، والرعب تحسه مجردة فرق عظيم . ولعله كان يجبُ أن تستحيلَ فى هذه الحالةِ إلى بخار ، فإن زعم أنها لقيته مُجردةً لم يصبها شىءٌ فهو الإخلالُ الذى لا مزيدَ عليهِ . والمبالغةُ فى شعرِ هذا الطورِ كثيرةٌ لا يُحصيها العدُّ .

فى هذا الطورِ أيضًا عبثَت الضروراتُ بشعر أبى العلاء فوقع فيه بعضُ الخطأ النحوىِّ فانظر إليه ، كيفَ سكَّنَ لامَ الفعلِ مع أن فى قوله : فكاد أن يشجُو الرِّحالا ، وكيفَ وضعَ أن بعد كادَ ؟ فإن زعم منتصرٌ له أن ذلك فى كلام العربِ قليلٌ ، وأنَّ لأبى العلاء وجهًا من التأوُّلِ ، قلْنا ، إن أبا العلاء نفسه ، قد كان أبغضَ الناس لحكم الضرورة فى الشعر ، كما ترى عندَ الكلام على رَسائله .

وفى هذا الطور نسبَ أبو العلاء ، وتغزَّل ، وافتخر ، لأنه فى الطورِ الثالث لم يملْ إلى هذين الفنَّين . وفى هذا الطَّور أيضًا وصف الأشياء المختلفة ، وسنحكم على هذه الأبوابِ عند الكلام على ما طرَق من الفنون .

شعره فى الطور الثالث

كان القانونُ الصارمُ الذى اتخذه أبو العلاء لنفسه ، بعدَ رُجوعه من بغدادَ مؤثرًا أشدَّ التأثير ، فى أطوار حياته . فقدْ صبغه بصبغةِ التشدُّد فى كلِّ شىءٍ ، وكلَّفهُ التزامَ ما لا يلزمُ فى أعماله العقليةِ ، وحياته المادية على السواء ، فتأثر شعرُه بهذا القانون تأثرًا ظاهرًا ، فامتنعَتْ منهُ المبالغة ، لأن الحرصَ على الصدق ، يحول بينهُ وبينها . وامتنعتْ منهُ الضروراتُ ، لأن التشددَ فى الحياة ، كلفه التشددَ فى التماس الإجادة ، ورأيناه يلتزم القوافىَ الصعبةَ ، فيُطيل فيها من غيرِ أن يظهرَ عليه مللٌ أو سأمٌ ، ومن غير أن يصيبه ضعف أو خور .

وحسبُك بالتائية التى بعث بها إلى أبى القاسم التَّنوخى . والطائيَّةِ التى بعث بها إلى خازن دار العلم ببغداد ، دليلاً على ما كان يأخذُ به نفسَه فى الشعر من التشدد ، فى إيثار القافيةِ الصعبة ، وكذلك رأيناه يتشدد فى محاكاة المتقدمين من العرب ، فيؤثر الألفاظ البدوية الجزلة ، والمعانىَ البدوية الفخمة ، ولا يتحضر فى شعره إلا إذا اضطرَّ إلى ذلك اضطرارًا ، فهو إذا كتب إلى خازن دار العلم ببغداد ابتدأ قصيدته ، على طريقة أهل البادية فقال :

لِمَنْ جِيرَةٌ سِيمُوا النَّوَالَ فلم يُنْطُوا ... يُظَلِّلُهمْ ما ظلَّ ينْبِتُهُ الخطُّ
رجوْتُ لهمْ أن يقرُبُوا فتباعدُوا ... وألاَّ يَشِطوا فى المزارِ فقد شَطُوا
يَمَانُونَ أحيانًا شآمُونَ تارةً ... يُعالونَ عن غَورِ العراق لينحطوا
بنازلةٍ سقْطَ العَقِيق بمثلها ... دَعاأدمعَ الكِنْدِىِّ فى الدِّمَنِ السِّقطُ

فانظر إليه ، ألستَ ترى منه فى مرآةِ هذا الشعر أعرابيًّا فى طمريه يحدُو بلفظهِ الجزل ناقةَ طرفةَ بن العبد التى يقولُ فيها :

أمونٍ عَلى ظهْرِ الإرَانِ نصَاتُهـا ... علَى لاحبٍ كأنَّه ظهرُ برجـد

بل لم يكْفِ أبا العلاء أن يتخيَّر من الألفاظِ ما لم يألَفْ أهلُ عصرِه ، حتى استعملَ غريب اللغةِ ونادرَها ، فوضع أنطَى فى أولِ القصيدةِ موضعَ أعطَى ، وهى لغةٌ قضاعية قُرِئَ بها فى القرآنِ . على أن بداوةَ أبى العلاء لم تمنعْه من اصطناعِ البديع ، فقد استعمل الجناسَ فى البيتِ الأول الذى آثرَ فيه غريبَ اللغةِ فقال :

« يظللهم ما ظل ينبتُه الخطُّ » ولقد كان عهدُنا بالبديع حضريًّا مهلهلاً ، فإذا نحنُ نراه فى شعر أبى العلاء الآن بدويًّا جزلاً . وكان الناسُ ولا يزالون يعجَبون بقول أبى الطيبِ :

حسنُ الحضارة مجلوبٌ بتطرية ... وفى البداوة حسنٌ غيرُ مجلوبِ

فإذا نحنُ نرى فيها الآن ، حسنًا جلبه أبو العلاء فأحسنَ تقديرَه وأقرَّه فى نصابِه . ثم انظر إلى الطباقِ فى قوله :

« يعالون عن غورِ العراقِ لينحطوا » كيف أحسن الملاءمةَ بينه وبين هذا

الأسلوبِ البدويِّ الجميلِ . ثم لم يزلْ يصف الشام والجزيرةَ وما فيهما ، من فتنٍ سياسية وصفًا بدويًّا ، حتى وصلَ إلى بغداد ففرغَ لخطابِ صاحبِه . فهذا الحرصُ الشديد على بداوة اللفظ والأسلوب ، مع اصطناعِ البديع وألوانِ الزينةِ يمثل لنا شيئين : أحدُهما تأثيرُ هذا القانونِ الصّارم فى شعره حتى باعَد بينه وبين شعر العصر الذى قيل فيه ، كما باعد بين الشاعر وبين غيره من معاصريه . والثانى أثرُ الدرس اللغويِّ الذى عكف عليه أبو العلاء ، بعد رجوعِه إلى المعرَّة . فقد يخيَّلُ إلينا أن هذا الدرسَ نفسَه هو الذى أوحَى إليه باستعمالِ كلمة أنطَى . ولولا أنهُ مرَّ بها بينما كان يفسِّر بيتًا غريبًا ، لما وجَدت إلى شعره من سبيل ، على أنَّ صرامةَ هذا القانون وتأثيرَ هذا الدرس ، لم يستطيعًا أن يقطعًا ما بين الرَّجلِ وبين عصرِه من الصِّلةِ فى الأسلوب الشعريِّ . فما زالت تجمعهُ به أسبابُ البديع والتظرف بالاصطلاحات العلميةِ .

يكادُ التكلف لا يوجدُ فى شعر أبى العلاء لهذا الطور ، إلاَّ أن يضطرَّ إلى نظمِ شىء ليس مما يتناولهُ الشعرُ . وما نحسِبُ أنَّ ذلك وقع له إلاَّ فى قولهِ من القصيدة التى بعثَ بها إلى أبى القاسمِ التَّنُوخى :

سألتهُ قبلَ يومِ السيرِ مبعثه إليك ديوان تيم اللات ماليتا

فانظر : كيف اضطرّه التكلف ، إلى أن يضعَ المصدرَ الميمىَّ موضعًا إن قبله النحوُ فلن يقبله الذوقُ ، وكيف اضطرتهُ القافيةُ إلى جناس هو أشبهُ بالرطانة ، وأدنى إلى التنافر ، يمجه السمعُ ويثقلُ به اللسانُ .

أبو العلاء فى هذا الطورِ بدويُّ اللفظِ والأسلوب ، قليلُ التكلفِ والمبالغة ، ولكنَّ شعرَه يمثلُ شخصَه تمثيلاً صحيحًا ، بحيثُ إنك إذا درسْتَ حياتهُ ، ثم عرضَ لك من شعرِه ما لا تعلمُ أنه لهُ ، لم تشك فى أنَّ هذا الشعرَ يمثلُ نفس أبى العلاء . ومصدرُ ذلك أن غيرَ أبى العلاء من الشعراء قلّما يفكرُون فى أنفسِهم أو يعترفون بها ، فهم يفنونها فيما يحاولون أن ينظِموا الشعرَ فيه ، فإذا مدحُوا فنيَت قوتُهم فى الممدوح . أما أبو العلاء فقد كان شديدَ الاعترافِ بنفسِه ، كثيرَ التفكيرِ فيها لا ينزلُ عنها ليتقنَ مدحًا أو يحسِنَ وصفًا . وإذ كان محبًّا

أو مكرهًا على أن تظهرَ نفسُه فى جميع أعماله ، وكانت نفسُه ممتازةً كما قدَّمنا ، فلا جرَم كان شعرُه كنفسه ، ممتازًا أشدَّ الامتياز .

أبو العلاء كما مثَّل شخصيَّته فى شعره الناضج ، مثلَ عواطفه أيضًا حتى إنك لتكادُ إذا قرأتَ البيتَ من هذا الشعر ، تحلِّلُه إلى تلكَ العواطف التى ائتلف منها تحليلاً دقيقًا ، من غير أن يلقاك فى كلِّ ذلك كبيرُ عناء . فانظر إلى قوله :

أثارنى عنكُمُ أمرانِ والــدةٌ لم ألْقــها وثراءٌ عادَ مَسْــفُوتَا

وابحث عما يؤلِّفهُ من العواطف تجدْ أنهُ يأتلفُ من عواطفَ ثلاث : الأولى حزنهُ على بغدادَ ، والثانيةُ حزنهُ على فقد والدته ، وأنهُ لم يوفَّق إلى لقائها ، والثالثةُ تألمه من الفقر وقلة المال . فإذا شئتَ أن تردَّ هذه العواطفَ الثلاث إلى أصولها التى كونتْها ، وعلَلِها التى اشتركت فيها ، رأيتَه إنما يحزن على بغدادَ لأنه فارقَ فيها ما كان يهوَى من دورِ العلمِ ومجالس المناظرة ، وما كان يحبُّ من الأصدقاء والأصفياء ، وما كان يؤملُ من الثروة وحسن الحال ، ثم ما اضطرَّ إليه من الفشل والجوع إلى حيث لا يحبُّ أن يكونَ . وإنما يحزنُ على فقد والدته لأنه يذكرُ فيها برَّها به ، وعطفها عليه ، ومعونتَها له على حوادث الزمان ، وأنه فقدَ منها نصيرًا كان يغنى عنه غير قليل . وإنما يألمُ من الفقر لأنه هو الذى قص جناحَه ، وقصَّر باعَه ، وحال بينه وبين ما يريدُ ، وجعل موقفه من آله موقفَ من تغريه الرغبةُ ، ويثنيه العجزُ . فإذا سألت التاريخَ عن هذا البيت ، أصادقٌ هو فيما يصفُ من أمر صاحبه ؟ أنبأك بأنه صادقٌ من غير ريب . ثم إذا سألتَ قواعدَ الفنِّ عن هذا البيت : أمستجمعٌ هو لشرائط الشعر ؟ حدثتك بأنه لا ينقصُه منها شىءٌ ، لأنه يستطيعُ أن يبلغَ من القلب الحساس موضعَ التأثير ، وإن لم يستعِنْ على ذلك بالخيال . لقد ذكرنا لفظ الخيال ، فمن الحقِّ علينا أن نبين أن عمل الخيال قليل فى هذا الطور من أطوار أبى العلاء . وذلك واضحٌ إذا لاحظنا أنه لم يكن يحيا حياةَ شاعر ! بل حياة فيلسوف ، فليس الخيالُ هو الذى يمدُّ شاعريته فى هذا الطور ، وإنما هى حياةٌ كانت فى نفسها شاعرةً ، تأتلفُ من أطوار مؤثرة ، فى كل قلب رقيق .

التقسيم الثانى لسقط الزند

الآن نقسمُ سقط الزند باعتبار ما يشتملُ عليه من الفنون ، بعد أن قسمناه باعتبارِ ما اختلف على صاحبه من الأطوار. يشتمل سقطُ الزندِ على المدحِ ،والفخرِ ، والوصفِ ، والرثاء ، والنسيبِ ، وليس فيه من الهجاء شيءٌ ، ولم يتعرض لوصف الخمر ، ولا الصيدِ ، ولا الغلمان ، وليس فيه من فنِّ الحكمةِ والحماسةِ إلاَّ ما يمكن أن يُلمَّ به فى طريقه ، إلى المدح أو الفخرِ أو النسيبِ . وهذا واضح ؛ فإن حياةَ أبى العلاء لم تكن حياة لهو ولعب فيصفُ الخمرَ والغلمان . وكان ذهابُ بصره حائلاً بينه وبين الصيدِ والحرب . فلم يكن من المعقول أن ينظمَ فى هذه الفنون قصائد خاصةً ، فأما الحكمةُ فقد خصَّص لها أكثرَ من كتاب . ولذلك لم يودع سقطَ الزند من قصائده الخلقية شيئًا . ونحن باحثون عن هذه الفنونِ فنًّا فنًّا ، حتى يكون البحثُ مفصلاً مستوفى ، وحتى نفهم أبا العلاء فى آدابه كما فهمناه فى حياته .

المدح

أكثرُ سقط الزند إنما يأتلف من المدائح ، ولكنا مضطرُّون إلى أن نقسمَ هذه المدائح قسمين ، الأولُ: قصائدُ أنشأها ابتداءً وقصد بها إلى شخص خيالىٍّ أو موجود . وهذه القصائدُ هى التى يصحُّ أن نبحثَ عنها ، أكانت تنظم لنيلِ الصلاتِ ؟ وإذا كان أبو العلاء قد حدثنا فى مقدمةِ كتابه أنه لم يتكسَّبْ بشعره فقد أراحنا من البحث ، لأنه عندنا صادقٌ مأمونٌ . الثانى قصائدُ لم ينظمْها إلاَّ ليجيبَ بها شاعرًا مدحه ، أو صديقًا كتب إليه ، وبين هذين النوعين من المدح فرقٌ ظاهرٌ .

ذلك أن النوعَ الأولَ تكثرُ فيه المبالغاتُ ، ويفهم فيه أثرُ الخيالِ ، لأن

الشاعرَ لا يريدُ به إلاَّ إتقانَ الصناعةِ الفنيةِ كما يفهمُها ، ثم هو لا يخشى أن يرمى بالغلوِّ أو التقصيرِ ، بالقياسِ إلى شخصِ الممدوحِ ؛ لأنهُ فى أكثرِ الأحيان شخصٌ مخترَعٌ ، ثم هو لا يتشددُ فى اتقاء الضرورات الشعريةِ فى هذا النوع ، لأنه لا يخشى أن يلقاه ممدُوحُه بنقد أو إنكار ، بخلافِ النوعِ الثانى فإنه تقلُّ فيه المبالغاتُ قلةً ظاهرةً ، وربما خلت منها القصيدةُ خلوًّا تامًّا . وأكثرُ ما يكونُ ذلك فى كتبُه إلى أصحابه ببغدادَ ، ثم هو يتَّقِى الضرورات الشعريةَ فى هذا النوع ما استطاعَ ؛ لأنه يحرص على ألاَّ تكونَ قصيدتهُ أقلَّ من قصيدةِ صاحبه الذى يجيبهُ . والنوعُ الأولُ لا يمثلُ عواطفَ خاصةً ؛ لأن أكثرَه منتحلٌ متكلَّفٌ . والنوعُ الثانى يمثلُ ما يجدُ الشاعر من عواطفِ الإخاء والإخلاصِ ، ومن الحنينِ والشوقِ ، ومن الحزنِ والأسَى ، ومن الإعظامَ والإكبارِ ، لأنه لم ينظمهُ فى أكثرِ الأحيانِ إلا متأثرًا بشىء من هذه العواطفِ التى تكون بين الأصدقاء . والفرقُ ظاهرٌ بين شعر نظمتْه الصناعةُ وحدَها ، وشعر اشترك القلبُ فى نظمه وتأليفه . والنوعُ الأولُ يقعُ كلُّه فى طورِ الشبيبةِ ، والنوعُ الثانى يقع أكثرُه فى طورِ العزلةِ . وتعليلُ ذلك ميسورٌ ؛ فإن الرجلَ فى شبيبتِه قد كان فارغًا لعبثِ الخيالِ ، فأمَّا فى عزلته فقد شغل عن ذلك ، وربَّما كانتْ أولى سقط الزند ، أجملَ قصائدِ النوعِ الأولِ ومطلعُها :

أعن وخدِ القلاص كشفت حالا ومن عنـــد الظلامِ طلبت مالا

أما النوعُ الثانى فأكثرُه جيدٌ . وأظهرُه تائيتهُ التى بعثَ بها إلى أبى القاسم التَّنوخى ، وطائيتهُ التى بعثَ بها إلى خازنِ دار العلم ببغدادَ ، وعينيتهُ التى بعثَ بها إلى عبد السلام بنِ الحسين البصرى ، وداليتهُ التى بعثَ بها إلى خاله أبى القاسم ، ونونيتهُ التى بعثَ بها إلى الشريف أبى إبراهيم موسى بن إسحاق . ولقد كنا نودُّ أن نصفُ هذه القصائدَ كلَّها ، ونُظهرَ القارئَ على دقائقها ، لولا أن هذا يضطرُّنا إلى إطالةٍ ليست فى موضوعِ الكتاب ، فإن الوصفَ المفصل لقصائد أبى العلاء ، يحتاجُ إلى كتاب خاصٍّ . على أنا مضطرون إلى أن نصفَ هذه النونيةَ ، لمزايا اختصتْ بها ، ولكنا نرجئُ ذلك إلى ما بعدَ الكلام عن الوصفِ . لأنَّ الوصفَ والمدحَ يشتركان فيها اشتراكًا تامًّا .

الفخر

ليسَ فى سقط الزندِ من الفخر شيءٌ كثير ، وإنما هى قصائدُ قليلةٌ أنبلها اثنتانِ ، أولاهما الهمزيةُ التى مطلعُها :

ورائى أمــامٌ والأمــامُ وراءُ إذا أنا لم تكبرنِىَ الكبراءُ

وثانيتهما اللاميةُ التى مطلعها :

ألا فى سبيلِ المجدِ ما أنا فاعلُ عفــاف وإقدامٌ وحــزمٌ ونائل

فأما أولاهما فقد خيل الشاعرُ فيها أنهُ يخاطب شخصًا بعينهِ ، فقال :

تساورُ فحل الشعر أو ليثَ غابه سفاهًا وأنت الناقة العشراءُ

وفيها للهجاء ظلٌّ ضئيل إذ يقول :

ومذ قال إنَّ ابنَ اللئيمةِ شاعرٌ ذوو الجهــل مات الشعرُ والشعراءُ

وليس فى القصيدة كبيرُ معنى ، إنما يفتخرُ الشاعرُ بنفسهِ وعزَّتها ، وأمانيه وسعتها ، وقومِه وسلطانهم على الشعرِ ، واستيلائهم على الأرضِ ، وغِناهم عن الناسِ ، وافتقار الناسِ إلى ما عندَهم من معروفٍ .

وأما الثانيةُ فللحكمةِ والمثلِ منها حظٌّ موفورٌ ، وللمبالغة والغلُوِّ فيها قسطٌ عظيمٌ ، ولم يتجاوز الشاعرُ بها الكلام عن نفسهِ ، والتمدحَ بكرم خلقه ، وبعد همه . والحقُّ أن طبيعةَ أبى العلاء ، لم تكن طبيعةَ الرجلِ الفخورِ ، لأنَّ الفخورَ يحتاج إلى طائفة من الأخلاق لم يكن لأبى العلاء فيها حظٌّ . فهو يحتاجُ إلى القدرةِ على المين ، والدفاعِ عنهُ ، وإلى إكبار الصغيرِ من أمره ، وإصغار الكبيرِ من أمر غيره ، وإلى شىء من الصفاقةِ يحول بينه وبين تأثير الحياة ، ويمكنه من أن يلقى الناس بأكاذيبه وكأنه برٌّ ، ولا سيما إذا لم تكن فى حياتهِ وحياةِ قومهِ ما يطلقُ لسانهُ بالفخرِ . وقد قدَّمنا أنَّ خُلقَ الحياء قد كان أقوى الأخلاقِ سلطانًا على نفس أبى العلاء ، فليس له إلى أن يغلو فى إعلان المين سبيلٌ . ومما لاَ شكَّ فيهِ أنَّ أبا العلاء لم يفتخرْ إلا فى الطور الثانى والأول من حياتهِ .

فأما الطورُ الثالثُ فقد شغلتهُ الفلسفةُ فيهِ عن الفخرِ . والفخرُ أشدُّ المعانى مناقضةً للفلسفةِ ، ومضادَّة للحكمةِ وكيفَ يفتخر بزينةِ الحياةِ رجلٌ كان يرى الحياةَ شرًّا محتوماً ، ويرى الخيرَ كله فى الفَناء ؟

الوصف

مثلُ أبى العلاء لا يُتقنُ من الوصفِ ما يحتاجُ إلى الإبصار ، وإنما يتقنُ وصف ما يحيطُ بهِ علمهُ من غير المبصَرَاتِ . فإنْ تناولَ الأشياءَ المبصرةَ ، فوصفَها وفصَّل أجزاءها ، وحدُودَها فليسَ يخلُو من إحدَى اثنتين : إما أن يكونَ عيالاً على غيره من الوصَّافِ المبصرين ، فيأخذُ عنهم ما قالوا ، وينفخُ فيه من نظمهِ روحًا خاصًّا . وليسَ هو فى هذه الحال واصفًا ولا شاعرًا وإنما هو نظامٌ ، وإما أن يملكه الغرورُ ، ويأخذَه العجبُ ، فيتناول الأشياء المبصرة بالوصف ، والتفصيلِ من غير أن يأتم بغيره ، أو يترسمَ خطو شاعر آخر . وهوَ فى هذه الحال عرضَةُ الخطأ الشائن ، والسخف الكثير .

ذلك أن إجادةَ الوصف الشعرىِّ لشىءٍ من الأشياء ، تقتضى أن يحدّقَ الشاعرُ فيما يريدُ أن يصفَه تحديقًا يظهرهُ على دقائقه ، ويرسمُها فى نفسه رسمًا يمسُّ عواطفهُ وخيالَه حتى ينطلقَ لسانه بوصف هذا الشىء نقلاً عما ترَكَتْ صورتهُ فى خياله وقلبهِ ، من الشكلِ المفصل والتأثيرِ الشديدِ . ومن الواضح أن ضريرًا كأبى العلاء ، ليس له إلى ذلك سبيلٌ . فإذا كانَتْ له إجادةٌ فى الوصف فإنما هى فى وصف الأشياء المعنويةِ ، كاللذَّة والألمِ والحزنِ والفرحِ ، وكألوانِ القول وفنونِ الكلام .

وقد درسنا ما عرَض له أبو العلاء من الوصفِ ، فإذا هو لم يعدُ هذه الأشياءَ ، وإذا هو حين تعرَّض لوصف المبصرات قد حرص كلَّ الحرصِ على تقليدِ الناسِ فيما قالوه . ولقد يغترُّ بعض الباحثين بما يجدُ فى شعره ، من وصفِ النجوم ومواقعِها وحركاتها ، ومن وصف السيف وروائهِ ، والفرسِ وأجزائه ، ولكنه إن

أعجبَ بذلك فإنما يعجب بشيء ليس لأبى العلاء فيه إلا الروايةُ وحسنُ التنسيق ، فهو فى الحقيقةِ يستطرف شيئًا تليدًا . ولو أنه استطاع أن يدرسَ من الأدب والعلمِ ما درَس أبو العلاء من غير أن يفوته منه شيءٌ ، لكان من اليسير عليه أن يردَّ هذه الأوصاف المبصرة إلى مصادرِها . ولقد كنا نودُّ ذلك ، ولكنا لم نوفَّقْ إلى أكثرِ ما درس أبو العلاء فى حياته الطويلةِ كما قدمنا فى المقالة الثانية . ونحن بعد ذلك نخشَى الإطالةَ ونتجنب كثرةَ التفصيل ، ونرى أن الوصولَ إلى هذا الغرضِ يحتاجُ إلى كتُب خاصة تفرد له . على أنا نقتنعُ الآن بالإشارةِ إلى المصادرِ العامة التى يأخذ منها المكفوفون ما يطرقون من أوصافِ المادة . فأولها ما يقرءون ويستظهرون من الشعر والنثر الذى أنشأهُ المبصرون ، والثانى ما يرِثُون من الأساطير القديمة ، والثالث ما يسمعون من أحاديث الناسِ ، والرابعُ ما يجدون فى كتُب العلم من خصائص الأشياء .

هذه المصادرُ تشترِكُ فى إمداد المكفوفين ، بما تجدُ فى كلامهم من وصف المبصرات . فأبو العلاء إذا وصف النجومَ فليس يعدُو هذه المصادر فى وصفه ، ولكنَّ أثرَ الأساطير فى هذا الوصف شديدٌ .

ذلك أنَّ الشاعر يحسُّ من نفسه القصورَ ، عن أن يبلغَ شأوَ المبصرين فى هذا الفنِّ ، فيحتالُ فى أن يعوضَ شعرَه من هذا القصور ، ما يزين لفظَه ويجمِّل معناه ، وما يصبى إليه النفوسَ ، ويستهوى إليه الأفئدةَ ، ولن ترى كالأساطير مؤديًا لهذا الغرض ، وموصّلا إلى هذه الغاية ؛ فإنها على ما لها من جمال الخيالِ ، تثير فى النفس عاطفة الكلف بالقديم والحنينِ إليه ، ولهذه العاطفةِ فى نفس الإنسان أثرٌ غيرُ قليل .

وقد آن لنا أن نستدلَّ على هذه القضيةِ بالأدلةِ الظاهرة من شعر أبى العلاء ، ولسنا نختارُ لهذا الاستدلال إلا نونيته التى وعدْنا بوصفها عند الكلام على ما لأبى العلاء من المديح .

بدأ أبو العلاء هذه القصيدةَ بقوله :

عللانِى فإنَّ بيضَ الأمانى فنيَتْ والظلامُ ليسَ بفانِى

فوصف الأمانيَّ بالبياض ، لا لأنه يعقلُ هذا اللونَ ، فقد حدَّثنا أنه لا يعقل من الألوان إلا الحمرة ، بل لأنه رأى الناسَ يصفونُ الجميلَ بهذا اللون ، ويستبشرُون به فيما لهم من النَّظم والنثرِ والحديثِ ، وهو بعدُ يريدُ أن يصفَ أمانيَه بالحسْنِ وقد حفِظ أنَّ الظلامَ لونهُ السوادُ فطابقَ بين هذين اللونين ، وطابقَ بين فناء الأمانى البيضِ ، وبقاء الظلامِ الحالك ، إشارةً إلى اليأسِ وانقطاع الرجاء من لذَّاتِ الحياةِ ، وسألَ صاحبيه أن يعلِّلاه بما عندهما من خيرٍ ليتلهَّى عن احتمالِ هذه الحياةِ المفعَمةِ باليأس والقنوطِ ، فكان لهذا الطباقِ صورةٌ خاصَّةٌ مثلَتْ ما فى نفسِ الشاعرِ من عاطفةِ اليأسِ من المستقبلِ ، والأسفِ على الماضى ، فأثارَتْ هذه الصورةُ فى نفسِ القارئ عاطفةَ الرثاء لهُ ، والحزنِ عليهِ ، ثم قال:

إن تناسيتمُا ودادَ أناسٍ فاجعلانى من بعض من تذكران

وليس فى هذا البيتِ من الوصف شىء ، وإنما هو تذكيرٌ بالعهد ، وإغراءٌ بالمحافظةِ عليهِ ، ثم قال :

ربَّ ليل كأنه الصبحُ فى الحسْـ ـنِ وإن كانَ أسودَ الطيلسان

فشبه الليلَ بالصُّبح لا فى شىء مادىّ بل فيما يمتعُ النفوسَ به من السرورِ والاطمئنانِ ، ولفَّعه بطيلسان أسود كثيراً ما لفعه به الناسُ من قبل ، ثم قال :

قد ركضنا فيه إلى اللَّهو لما وقفَ النجمُ وقفـةَ الحيران

فوقف الثريَّا موقفَ الحيران وليسَ فى ذلك إلاَّ الدلالةُ على طول الليل، والمطابقة بين الركض والوقوف . ثم قال فيها :

ليلتى هذه عـروسٌ من الزنـ ـج عليهـا قلائـدٌ من جُمان

وتشبيه الليل بالزنجىّ والنجوم بالدرر قديمٌ مطروقٌ ، قد اتخذه الشعراءُ معنى شائعًا يبذلونه ويصرفونهُ فى أغراضِهم . فليسَ لأبى العلاء فى هذا التشبيه ، إلاَّ جعلهُ الليلةَ عروسًا قد لبسَتْ من النجومِ قلائدَ من جمانٍ .

وهذا التشبيهُ إنْ حسُنَ وقعهُ على السمع ، وعذُبَتْ ألفاظه على اللسانِ ، ولم تنْبُ صورتهُ الظاهرةُ عن الخيالِ ، فهوَ شديدُ النبو عن الحقيقةِ ،

بعيدٌ ما بينه و بنيها من الأمد . فإنَّ ذلك لا يتمُّ إلاَّ إذا كانَ ائتلافُ النجومِ ، وانتظامُها وموقعُها من الليلِ ، كائتلافِ القلادة وموقعِها من العروسِ . ومن الظَّاهر أنَّ الليلَ ليسَ كالعروسِ إلاَّ فى اللَّفظِ ، وأن النجومَ ليست كالقلادَة إلاَّ على طرفِ اللسان . ثم عرَّض أبو العلاء لوصفِ المعانى وهوَ لوصفِها متقنٌ ؛ وللتشبيه فيها مجيدٌ ، فقال :

هرب النومُ عن جفونى فيها هرب الأمن عنْ فؤاد الجبان

فانظر إليه كيفَ أحسنَ التشبيهَ كل الإحسان ، وأجادَه أتم الإجادة . و إنما وُفقَ إلى ذلك حين لازَم بين هربِ النوْم عن جفونهِ ، و بين شىء لم تألف النفسُ استحضارَه ، إذا استحضرت الأرق والسهادَ ، وهو هربُ الأمنِ عن قلبِ الجبانِ . و إنما سبيلهُ فى ذلك التشبيهِ سبيلُ ابن الرومىِّ فى التشبيهِ المادىِّ إذ قال :

ولازوردية تزهُو بزرقتِهـا وسط الرياضِ على جمر اليواقيتِ
كأنها فوقَ قاماتٍ ضعفْنَ بها أوائل النارِ فى أطرافِ كبريتِ

ذلك أن استحضارَ الكبريتِ فى أطرافِ النارِ قد كثرَ وشاعَ ، حتى لم تكبره النفوسُ ولم يحفلْ به الخيالُ . فإذا نظرَ الناظرُ إلى البنفسج لم يخطرْ له أن يتخيَّل فى الروضةِ المونقةِ ، ذلكَ المنظرَ الذى يألفهُ فى بيته . فلما ألَّفَ الشاعرُ بين هذين المنظرينِ المفترقَين فى استحضار النَّفس أشدَّ الافتراق ، وافقَ هذا التأليف من النفوسِ استغرابًا ، ومن القلوب هـوًى . وكذلك لزومُ الروعِ قلبَ الجبانِ أمرٌ كثيرُ الخطور بالبالِ والجريانِ على الألسنةِ . ولكنَّ الناسَ لا يذكرونه إذا ذكرُوا السهرَ الذى يصيبُ المحزونَ لهمٍّ أو غرامٍ . فلما سبقَ أبو العلاء إلى التأليف بينهما وقفَ النفسَ منهما على غريب غير مألوف . بخلاف قولِ ابن المعتزِّ فى وصف الهلال :

انظرْ إليهِ كزورق من فضَّةٍ قد أثقلتْهُ حمولةٌ من عَنْبَر

فإن الناسَ إذا استظرفُوا هذا التشبيهَ أو أُعجبُوا به فسببُهم سبيلُ من يعجبُ بأملٍ لن يظفرَ به ، ولن يحصلَ عليه . ولو قد أتيحَ له مرآه لأتيحت له به السعادةُ ونعمةُ البال . ولعمرى ما حدَّثَ ابن المعتزِّ نفسَه بأن يرَى على

صفحات دجلةَ يومًا ما زورقًا من الفضة تثقلهُ حُمولةٌ من العنبرِ . إنما تلك أحاديثُ النائم ، وخطرفةُ الخيالِ ، قال أبو العلاء بعد ذلكَ :

وكأن الهلالَ يهوَى الثريَّا فَهما للوداع معتنقانِ

وليسَ لهذا البيتِ من الحسنِ إلا ما يثيره ذكرُ الهوَى ، والوداع واعتناقِ العاشقين ، فأما البيت فإنما يشيرُ إلى اجتماع الهلالِ والثريَّا فى برجِ الحملِ كما يقولُ الشرَّاحُ ، ولعمر أبى العلاء لو اعتنقَ هذانِ العاشقانِ لدهمت الفلكَ داهمةٌ . ولأصابهُ الخطبُ العظيمُ . قال أبو العلاء بعدَ هذا :

وسهيل كوجْنةِ الحِبِّ فى اللوْ نِ وقلبِ المحبِّ فى الخفقانِ

فأحد هذينِ التشبيهينِ مبصر الطرفينِ ، وفيه تشبيهُ لونٍ بلونٍ ، والناسُ يصفُون سهيلاً بحمرةِ الضوء . على أنَّ جمالَ التشبيهِ إنما جاءَ من لفظِ المشبَّه به لدلالته على ما تهوَى النفوسُ ، من خدودِ الحسان . والتشبيهُ الثانى تشبيهُ لشىء تبصرُه العينُ ، وهو حركةُ سهيل بشىء آخر تصفُه الكتبُ ، ويتحدثُ عنهُ الشعراءُ ، وهو خفُوقُ القلب . وجمالهُ جاءَ من لفظ المشبه به أيضًا ، لما يخيل من شدةِ اضطرابِ قلبِ العاشقِ وسُرعةِ خفقانه . ثم أخذَ يصفُ سهيلاً بما فى أحاديث العرب ، عن مواقع النجُوم ووقائعها ، فوقفهُ موقفَ الفارس يستعرضُ خصومَه وجعلَ حمرتهُ نجيعَ الدم الذى خضَّبه به أعداؤُه فى تلك الحرب الخرافيَّة ، وجعل أختيه الشعريين تبكيانِ عليهِ ، ثم ذكرَ نجمين خلفهُ يزعمُ العربُ أنَّهما قدماه ، ثم وصفَ الليلَ وقد وخطَه المشيبُ بضوء المصباحِ ، وهو قولُ الفرزدقِ :

والشيبُ ينهضُ فى الشبابِ كأنَّهُ ليلٌ يصيحُ بجانبيْه نهارُ

ثم حدَّثنا بإشفاقِ الليل حين أصابه المشيبُ من هجرِ نجومِه التى جعلها غوانى حسانًا ، بعد أن جعلها قبلَ ذلك قلائدَ من الجمانِ . فزعمَ أن الليلَ قد ستر مشيبه ، بتلكَ الحمرة التى تبدو عند الصُّبح ، وسمَّاها الشاعرُ زعفرانًا ، ثم وصفَ النسر الواقع حين همَّ متباطئًا بالنفور ، فزعم أن النهارَ قد جرَّد عليه من ضيائه سيفًا فهمَّ بالطيرانِ . ولعمر أبى العلاء لقد كان من حقِّ هذا النسر أن

يُسرع بالطيران لا أن يهمَّ به . ولما فرغ من أساطير الجاهلية عمدَ إلى أساطير الشيعة ، يتقدمُ بها إلى صاحبه الهاشميِّ ، فزعم أن هذه الحمرةَ التى تسبقُ مطلعَ الفجرِ وتلحق مغربَ الشمسِ ، إنما هى شاهدانِ ، من دمِ عليٍّ وابنه الحسينِ ، قد ثبتا فى قميصِ الليلِ . ليستعديا اللهَ على خصومهما يوم الحساب . ومضى بعد ذلك فى المدحِ فأثنى على صاحبه بما كان للنبيِّ من بلاءٍ فى الغزوِ ، وغناءٍ فى الدين . وذكر ما تقولُه الشيعةُ من أنه أحدُ الخمسة الذين هم المقصودون بما فى أنواع الكلام من لفظ ومعنًى . ثم ذكر بنى هاشمٍ وفضَّلهم وخصَّ الممدوحَ وأولادَه بالفضيلة ، واعتذرَ إليه من تقصيره فى إجابته . فلفظُ القصيدة رقيقٌ جزلٌ ، وأسلوبُها حلوٌ عذبٌ ، ومعانيها مستهويةٌ للقلوبِ ، خلابَّةٌ للألبابِ . ولكن حظَّ الشاعر فيها إنما هو حظُّ الرجلِ يتخيرُ من الحديقةِ أحاسنَ الأزهار ، فينسق منها طاقةً حسنةَ النسيق ، ليقدمَها إلى صديقه ، فله التنسيقُ ولغيره الاختراعُ والإيجادُ . ذلك شأن أبى العلاء وغيره من المكفوفينَ فيما نرى لهم من وصفِ المبصرات ، فإذا عرضوا لوصف المعانى بلغوا من إتقانه ما يشتهون .

الرثاء

ليس فى سقطِ الزند من المراثى إلاَّ قصائدُ سبع ، رثى الشاعرُ أمَّه منها باثنتين وبكى على أبيه بواحدة ، ونعى أبا الشَّريفين بواحدة أخرى ، واستعبرَ على أبى حمزةَ الفقيه بالخامسة ، وأبَّنَ جعفرَ بنَ على بن المهذب بالسادسة ، وذكر بالسابعة أبا إبراهيم العلوى[1] .

حياةُ أبى العلاء المملوءةُ بالهمومِ والأحزانِ ، وفلسفتُه المفعمةُ بالسخطِ على الوجودِ وما فيه ، تعدَّانه للنبوغِ فى الرثاء ، ولكنه رثى أباه طفلاً لم ينضج عقلُه ، ولم تتكون فلسفتُه ، ولم يظهرْ نبوغهُ ، ولم تمتز عواطفهُ ، فأخطأته الإجادةُ . ورثى أمه فى آخر الطورِ الثانى وأولِ الطور الثالثِ ، أى فى عصرِ انتقاله من حالِ

---

(١) أبو العلاء وما إليه للميمنى ص ٦٧ .

إلى حال ، واضطراب نفسه بين ماضٍ مؤلم ، ومستقبل مظلم ، وقبل أن تمتاز فلسفتُه وتتبينَ . فخضعَ لما ألفَ شعراءُ العربِ أن يخضعوا له من إجادة النظم وإتقانِ الوصفِ ، من غيرِ أن يحفلوا بإظهارِ العواطف كما هى ، وتمثيلِ النفس وأحزانِها من غير تكلفٍ ولا تعمُّل . لذلك كان أبو العلاء فى رثاء أمه واصفًا أكثرَ منه راثيًا . أما صديقهُ (أبو إبراهيم العلوى) فقدْ رثاهُ فى طورٍ لا نعرفُه ولكنَّ قصيدتهُ فى رثائه تخلو من المتانة والحزن معًا . وليس أبو العلاء على أبى الشريفين أشدَّ حزنًا منه على صديقه أبى إبراهيم . وإنما هى قصيدةٌ أنشأتْها المجاملةُ ، وأثَّرَ فيها حبُّ الإعجاب فظهر فيها تكلفُ الحزن وتصنُّع البكاء . إنما الرثاء الجيدُ ما رثَى به أبا حمزةَ وجعفرَ بنَ على بن المهذَّب ، فإنك لا تكاد تقرأ رثاءَ أبى حمزةَ ، حتى تتمثلَ أبا العلاء بين يديْكَ ، ينشدُك هذه القصيدةَ بصوت الحزين المطمئنِّ ، صوت يمثل حزنًا قد فطرَ قلبَ الشاعر ، وصدَّع كبدَهُ ، واطمئنانًا قد منعهُ من إظهار الجزعِ الذى يذهبُ بوقار الفيلسوف . نعم وصوت يصدُر عن رجل يشترك عقلهُ وقلبهُ فى تأليف ما يقولُ ، فالقلب تمثيلُ الحزن الشديد ، وللعقل فهمُ الأشياء كما هى ، ودعاءُ النفوس إلى اليأس من آمال الحياة ، والصبر على آلامِها .

نعتقدُ أن العرب لم ينظموا فى جاهليتهم وإسلامِهم ، ولا فى بداوتِهم وحضارتهم قصيدةً تبلغُ مبلغَ هذه القصيدة فى حسن الرثاء . نتهمُ ذوقَنا ونتهم أنفسَنا بالتعصُّب لأبى العلاء إشفاقًا على الآدابِ العربيةِ ، ألا يكون فيها من الرثاء الجيدِ ما يعدل هذه القصيدةِ ، ولكنا نضطرُّ بعد الدرس وإجادة البحث إلى تبرئة أنفسنا من هذه التهمة :

غَيرُ مُجدٍ فى ملَّتى واعتقادى ... نَوْحُ باكٍ ولا ترنمُ شادِ
وشبيهٌ صوتُ النَّعىِّ إذ قيـ ... ـس بصوت البشير فى كلِّ نادِ
أبكَتْ تلكم الحمامةُ أم غنـ ... ـتْ على فرعِ غصنها الميَّادِ

أى معنًى أصحُّ وأى لفظ أمتنُ ! ! أى أسلوبٍ أرقُّ وأىُّ تركيب أرصنُ ! ! أى معْرِض يستثير حزنَ القلوب ويستنزف ماءَ الشئون ! ! أترى أن البكاءَ يردُّ مفقودًا ، وأن الغناء يحفظُ موجودًا ! أليس استيلاءُ الضعف على نفسك وعبثه بلبِّك

هو الذى يحزنك لصوت الناعى ، ويطربك لصوت البشير ؟ أليس الاستبشارُ بالشىء مقدمةَ حزنٍ عليه ؟ أرأيت حزنَك يعظُم على الهالك ، إن لم يكن حرصُك عليه شديدًا ، وحبُّك له موفورًا ، وأنسُك بقربه عظيمًا ؟ أرأيتك لو صدقت نفسك الحديثَ ووطنّتها على احتمال الأشياء كما هى ، تجدُ كبيرَ فرق بين الخير والشرِّ ؟

إنَّ حزنًا فى ساعةِ الموت أضعـــا فُ سرورٍ فى ساعةِ الميـــلادِ

أترى أن الشاعرَ يكذِبُ فى ذلك أو يمينُ ؟

صَاحِ هذى قبورُنا تملأ الرُّحْـ ـبَ فأينَ القبورُ من عهدِ عـــاد
خَفِّفِ الوطْءَ ما أظنُّ أديمَ الأرْ ضِ إلا من هـــذه الأجســـادِ
سرْ إن اسْتَطَعْتَ فى الهواء رويدًا لا اختيـــالاً على رفات العبـــادِ
فقبيحٌ بنـــا وإن قدُمَ العهـ ـدُ هَـــوانُ الآباء والأجـــدادِ

انظر إليه : كيف أحسن المزج بين رأيه الفلسفىِّ فى انحلال الأجسام إلى عناصرها[1] ، وبين ما أرادَ من البكاء على الهالكينَ والعزاء للباقينَ ، والأمر بالتواضع والعظةِ ، والنهى عن الخيلاء والاستكبارِ . كلُّ ذلك فى لفظٍ لا يطمعُ الناقدُ فى أن يجدَ إلى نقده سبيلاً .

أبَنَاتِ الهَدِيلَ أسْعِدْنَ أوْ عِدْ نَ قليلَ العَـــزاء بالإســـعَادِ
إيه لله دَرُّكُنَّ فأنتـــــنَّ اللَّواتى يُحسِنَّ حفظَ الوِداد

ألم تر إليه كيف يئس من وفاء الناس ، ومالَ مع الخيال إلى بناتِ الهديل فاستعانهنَّ على مصيبته ، واستبكاهُنَّ لنازلته ، وكيف جعَل أول هذين البيتين ، موسيقىَّ اللفظ حين تعرَّض لنجوَى الحمائم ؟

كيف أصبحْت فى مكانك بَعدى يا جديرًا منى بحُسْنِ افتقادِ

فانظرْ كيف تتمثلُ أحزانُ الشاعر وعبراتهُ فى هذا البيت ، وكيف يظهرُ إشفاقهُ على صاحبه ، وتذكره لعهدِه القديم ؟

---

(١) فتح أبو الطيب المتنبى له هذا الباب (انظر « مع المتنبى » للمؤلف ص ٣٨٦) ، كما فتح له أبواباً فلسفية أخرى .

القصيدةُ كلها من هذا النحوِ ، والإطالةُ فى وصفِها ليست من شرط الكتاب ؛ أما رثاؤُه لجعفر بن على بن المهذب فقد غلبتْ عليه الحكمةُ ، حتى كادت لا تكون إلا قصيدةً نُظمتْ فى فلسفة الموت[1] ، وقلما رأيتَ فيها بيتًا إلا وهو يصلُحُ لأن يكونَ مثلاً سائرًا وحكمةً جاريةً على الألسنةِ . وعلى الجملة فإن إجادة أبى العلاء لفنِّ الرّثاء تنحصرُ فى هاتين القصيدتين . وعندنا أنَّه قد بزَّ بهما شعراءَ الرثاء جميعًا فى الجاهليةِ والإسلام .

النسيب

نظلمُ أبا العلاء إن وصفناهُ بإجادة الغزلِ ، وإنما هو رجلٌ ضريرٌ مفجعٌ ، قد ملكهُ الزهدُ وحالتْ فلسفتُه بينه وبين لَذّات الحياة ؛ فلم يرقُصْ قلبُه لموعد وصال ، ولم يجبْ لوشكِ ارتحال ، ولم يَسمعْ من أحاديث الغيدِ الحسان ، ولا شرب من رهينةِ الدّنان ما يطلقُ لسانهُ بالنسيب الغريب ، والغزل الرقيقِ ، إنما هى مقطوعاتٌ نظمها نظمًا فنيًّا ، لا مدخلَ للقلبِ فيه ، ولا سبيل للوجدان عليه[2] .

الدرعيات

درسنا الدرعياتِ درسًا خاصًّا رجاءَ أن نجدَ فيها ما يبيّنُ العلةَ التى اقتضتْ كلفَ أبى العلاء بالدُّروع ، وإفرادَه لها قصائدَ خاصّةً مع أنه لم يسبغها على جسمه قط ، إذ كانَ لم يشهدْ حربًا ولا قِتالا . إنما كان جهاد مثله كما يقولُ الزُّهدُ وضبطُ النفسِ :

أجاهدُ بالظَّهارة حين أشتُو وذاك جهادُ مثلى والرباطُ

---

(١) والمتنبى أستاذه فيها ، انظر رثاءه لعمة عضد الدولة فقد قلدها أبو العلاء حتى فى الوزن .

(٢) شأن أبى العلاء فى النسيب كشأن أبى الطيب شغلته نفسه وفلسفته عن إجادة هذا الفن ، انظر « مع المتنبى » للمؤلف .

لم يُنتجْ لنا البحثُ إلاّ ما قدّمناه فى أول هذه المقالة ، من الظنّ الذى لا نستطيعُ أن نجزمَ به . إذن فليسَ من حقّ الدرعيّات أن يشتدّ البحث عنها ويطولَ القولُ فيها ، وإنما الحقُّ لها أن تلحقَ بما فى سقط الزند من الوصف ؛ فإنّها لا تتجاوز الافتنانَ فى تشبيهِ الدرع بالغدير مرةً ، وعين الجراد مرةً أخرى ، وفى ذكر بلائها فى تثليم السيوف وتحطيم الرّماح ، وحياطة الدارعين . واللهجةُ الجاهلية فيها غالبةٌ ، والأسلوبُ البدوىُّ فيها ظاهرٌ ، والغريب بين ألفاظها كثيرٌ . وربما عملَ الخيالُ فى التأليف بين الأوصاف الموروثة عن الجاهليين . فنظم الشاعرُ محاورةً بين الدرع والسيف ، وأخرى بين غلام وامرأة باعت درع أبيه ، وثالثةً عن لسانِ رجل اضطرَّ فباع درعَه ، وهو فى كلِّ ذلك لا يزيدُ على اختراع الأساليب المختلفةِ ، لنظمِ ما حفِظ من وصف الشعراءِ للدُّروع .

اللزوميات

١

غيرُ هذه المقالةِ أحقُّ بوصف اللزوميات ؛ لأنها إلى أن تكونَ كتابًا فلسفيًّا أقربُ منها إلى أن تكونَ ديوانًا شعريًّا . وإنما نعرضُ لها الآن ، لنصفَها من الوجهةِ الأدبيّةِ وصفًا موجزًا . ولقد عملت اللزومياتُ عملاً غيرَ قليل ، فى تكوينِ طائفة من الخصائص الأدبيّةِ لأبى العلاء . وكما أن سقط الزند ، قد خضَع فى نظمهِ لآرائه الفلسفيةِ ، فقد خضعت اللزومياتُ أيضًا لهذه الحياة . إلاّ أن صرامةَ قانونِه الفلسفىِّ ، تلمسُ باليدِ فى اللزوميّاتِ ، ويحتاجُ الباحث إلى أنْ يدلَّ عليها فى سقط الزند .

٢

لفظ اللزومياتِ أو لزوم ما لا يلزمُ ، هو شعارُ أبى العلاء فى جميع أطوارِ حياتهِ ، بعد رجوعهِ من بغدادَ ، فقد التزمَ فى شعره ونثرِه وسيرته أشياء لم يلتزمها

من قبلُ ، ولم يكن من الحق عليه التزامها . وإنما آثرها حين راض نفسه على تكلف المشقة واحتمال المكروه . فالتزَم فى اللزوميات أن تكون القافية على حرفين ، أى أن يلتزمَ حرفاً لو أسقطه لما كان متجاوزاً قواعدَ القافية .

ليس أبو العلاء هوَ الذى سبقَ إلى اختراعِ هذا الفنِّ من التكلفِ ، بل قد سبقَه إليه كُثَيِّرٌ فى تائيَّته التى مطلعُها :

خليلىَّ هذا ربعُ عزةَ فاعقِلا قلوصَيْكُما ثم ابكيَا حيث حلَّتِ

وذلك أنهُ التزمَ اللاَّمَ إلى آخر القصيدة ، ولو لم يلتزمْها لم يلحقْه بذلك عيب . ولم يدلنا تاريخُ الآدابِ ، على أن كثيرًا قد التزمَ هذه اللاَّمَ تكلفًا ، أو وقعَ له التزامُها من غيرِ أن يرغبَ فيه ، ومهما يكُنْ من ذلك فكثيِّرٌ هو الذى اخترعَ هذا الفنَّ . ولكنَّ الشعراءَ لم يمالئوهُ عليه لما يستتبعُ من المشقة فى النظم ، ومن بسْط سلطانِ اللفظ على المعنَى . والعجبُ أن الشعرَ العربىَّ وحدَه ، هو الذى يختصُّ بالتزامِ قافيةٍ فى القصيدة ، وإن طالَت . فانظُرْ كيف جاء كُثَيِّرٌ فأراد أن يضاعفَ هذه المشقةَ ويزيدَ عبئها ثقلاً !

أقبلَ أبو العلاء بعدَه بثلاثةِ قرون . فالتزم طريقتَه ، ونظمَ عليها ديوانًا ضخمًا ، وبالغَ فى التحرُّجِ حتى أخذَ نفسَه باستيفاء حروفِ المعجم كافَّة ، وما يلحقها من الحركاتِ والسكون ، فلكل حرف أربعةُ فصول ، إلا الألفَ فإنها لا تكونُ إلاَّ ساكنةً ، فاشتملَ الكتابُ على ثلاثةَ عشرَ فصلاً ومائة ، ضمَّنَها آراءَه الفلسفيَّةَ التى خصصْنا لشرحها المقالةَ الخامسةَ . هذا التكلفُ اضطرَّ أبا العلاء إلى المبالغةِ فى اصطناعِ الغريب ، ليقومَ لهُ بما يحتاجُ إليه من القافيةِ ، وقد عابهُ كثيرٌ من الناسِ بهذا التكلف ، كابن الأثيرِ فى كتابِ المثلِ السائرِ ، والأستاذ الإسكندرىِّ ، فى كتابه الذى نثرَه فى تاريخ الآدابِ العباسيَّة ، وعندنا أن كلاَ الرجلين ، لم يوفَّقْ فى لومهِ على أبى العلاء ؛ لأن أبا العلاء لم يضعْ هذا الكتابَ على أن يكونَ ديوانَ شعرٍ ، وإنما وضَعهُ ليكون كتابًا فلسفيًا كما قدَّمنا . وقد اعترفَ الرجلُ نفسُه بذلك فى مقدمة الكتاب ، واعتذرَ مما عسى أن يقعَ فيه ، مما لا يوافقُ أساليبَ الشعراء ، كما اعتذرَ من أنَّ الكتابَ سينقصُه

الخيال الذى يعتمدُ عليه جمالُ الشعر ، لأنهُ عاهدَ نفسَه ألاَّ يضعَ فيه إلا ما يعتقدُ أنهُ الحقُّ ، وأنهُ من الكذبِ والمينِ برىءٌ . والحقُّ الخالصُ قليلُ الملاءَمة لمذاهبِ الشعر وأهواء الشعراء . على أن التكلفَ فى اللزومياتِ لم يبلُغْ من الكثرَةِ مبلغَ أن يكونَ من عُيوبِ الكتابِ ، وقد كان أبو العلاء كثيرَ الحفظِ والاستظهارِ ، بصيرًا بنقدِ الشعر ، فمن المعقول أن يتجنَّبَ العيبَ والزَّللَ ما استطاعَ . وذلك هوَ الذى أنتجهُ لنا الدرسُ المستقصِي لكتابِ اللزوميَّاتِ .

٣

لم يردْ أبو العلاء أن يُظهر فى كتاب اللزوميَّاتِ ، مقدرتَه اللغويةَ وبراعتَه فى قرضِ الشعرِ ، كما ظن طائفةٌ من الناسِ . وإنما سلك هذا المسلكَ فيما نعتقدُ ، ليكونَ أدعى إلى إيثار الغريبِ والاستكثارِ منه ، حتى تخفَى أغراضُ الكتاب على كثير من الناس ، لم يكن يحبُّ أن يظهرُوا عليها . وهذا فيما نرى علة حبِّه للرمز والإيماء ، وإيثارِ الألفاظِ الجافيةِ ، للمعانى الغريبةِ . فما لا شك فيه أن الرجلَ كان يودُّ لو عمِيَ أمرُ كتابهِ ، على ناس من المتشددين فى الدين حتى لا يتخذوه وسيلةً إلى إهدارِ دمهِ ، وإزهاقِ نفسه . فلا جرمَ آثرَ من الألفاظِ والأساليب ما يصعبُ فهمهُ على هؤلاء الناسِ . وسترى فى المقالة الخامسةِ أن أبا العلاء ينصُّ على أنهُ يصطنع الإلغازَ ، لإخفاء أغراضِه على كثير ممن يتناولون كتابهَ . فأما أنَّ اصطناعَ الإلغازِ فى نفسه حسنٌ أو قبيحٌ ، فى الدلالة على الآراء الفلسفيةِ ، فشىءٌ نعرضُ له فى غيرِ هذا الفصلِ .

٤

أكثرُ اللزومياتِ متينُ اللفظ ، فخمُ الأسلوبِ ، وقليلٌ منها السهلُ الرقيقُ . والاصطلاحاتُ العلميةُ منبثةٌ فيها بغير حساب ، حتى إنَّه فى قصيدة واحدة ، استعارَ من علماء الشعرِ والصرف والعروضِ والفقهِ فقال :

مالى غدوتُ كقافِ رؤْبةَ قيدَتْ فى الدهرِ لم يقدرْ لها إجراؤُها

أشار إلى قافيةِ رؤبةَ التى يقولُ فيها :

وقاتِمِ الأعماقِ خاوِى المخترَق مشتبهِ الأعــلامِ لمَّاعِ الخفق

أعْمِلْتُ علةَ قالَ وهْىَ قديمةٌ أعيَا الأطبَّــةَ كلَّهمُ إبراؤُهَا

فاستعارَ من علماء التصريف ، وقال :

وإذا النفوسُ تجاوزَتْ أقدارُها حَدْوَ البعوضِ تغيَّرتْ سُجراؤُها

كصحيحةِ الأوزانِ زادتْهَا القُوَى حرفًا فبــانَ لسامعٍ نكراؤُها

فاستعار من أصحاب العروض ، وقال :

ووجدت دنيانَا تُشــابهُ طامثًا لا تستقيمُ لناكحٍ أقراؤُهَا

فاستعار من الفقهاء . وقد استعار فى قصيدة أخرى من علماء القافية فقال :

وكأنَّمــا هذا الزمانُ قصيدةٌ ما اضطرَّ شاعرُهــا إلى إيطائِها

والعروضُ فى اللزوميات كثيرٌ ، لا يخلو منه فصلٌ من الكتاب . وكذلك القافية والنحوُ والصرفُ . وذلك يدلُّ على شدةِ تأثير الدرس اللغوىّ فى ملكتِه الشعريةِ ، والعجبُ أنك تلقَى فى هذه الاصطلاحاتِ المستعارةِ ، تشبيهاتٍ صحيحةً جيدة ، مع أنها فى أنفسِها أبعدُ ما تكونُ من ظرفِ الشعراء ، أما الاصطلاحاتُ الفلسفية فليس لنا أن ندلَّ على انتشارها فى الكتابِ ؛ لأن ذلك حقُّها الفطرىُّ ؛ إذ الفلسفةُ هى المقصودةُ بتأليف الكتاب . ولأبى العلاء فى اللزوميات خصائصُ ليست فى غيره : فمنها سلوكهُ فى الشعرِ مسلكَ المؤلفين فى النثر ؛ كأن يوردَ اللفظَ المحتملَ معنيين فيضطرُّ إلى تفسيره كقوله :

وكل أديب أى سيدعى إلى الردى من الأدب لا أن الفتى يتأدب

وقوله :

نوديت ألويت فانزل لا يراد أتى سَيَرْى لِوَى الرَّمْلِ بل للنبت إلواء

وهذا فى اللزوميات كثيرٌ ، والبديعُ منتثر فى اللزوميات محتكم فيها . ولكنَّ أبا العلاء اختار فى استعمال الجناس أسلوباً يوشك أن يكون مقصوراً عليه : ذلك أن يعقدَ المجانسةَ بين أول كلمة فى البيت وآخر كلمة منه ، فى جملة القصيدة أو أكثرها كقوله :

إثْران مِنْ خـير وشرّ لنـا ويَلحقُ التثريبُ أثـرانَا
عُمرانِ مـرًّا لكبيرٍ ولا يُترَكُ للدامـرِ عُمـرانَا

ومثلُ ذلك كثيرٌ . والأمثالُ السائرةُ فى اللزوميات أكثرُ من أن يحصيَها العدُّ . وكثرتُها معقولةٌ فى كتاب حظّ الأخلاقِ منه عظيمٌ . ولأبى العلاء نوعٌ من الشعر فى اللزوميات ، ذهبَ فيه مذهبَ مناجاة الحيوانِ . فحاور الديكَ والحمامةَ ، والذئبَ والشاةَ والجملَ . وهذا النوعُ من شعره عذبٌ حلوٌ يفيض رحمةً ورقةً .

٥

لم يوضع اللزومياتُ فى وقت معروف ، ولكنه نُظِمَ فى الطورِ الثالث من غير شكّ . ومن قصائده ما يعينُ التاريخُ لنا وقتَها كالتى نظمها فى استيلاءِ صالحٍ على حلبَ ، وفى حصارِه للمعرّةِ ونحوِ ذلك .

كلمة عامة فى شعره

١

الآن وقد فرغنا من الوصفِ الخاصّ لشعر أبى العلاء ، ينبغى أن نفىَ بما وعدْنا به من الوصفِ العامّ لهذا الشعرِ ، فنذكرَ خصائصَه التى تميزُهُ من غيره : فأولُ هذه الخصائص غموضُ الأغراض ، وذلك ظاهرٌ فى سقطِ الزند والدرعيات واللزوميات جميعًا . فإنكَ تقرأ القصيدةَ من شعر أبى العلاء ، وقد فهمتَ ألفاظَها المفردةَ ، فلا تكادُ تفهمُ معانيها ، حتى تعنَى بتفهمها عناية خاصةً . ولئن صحَّ أن هذا الغموضَ ، مقصودٌ فى اللزوميات ، فلا شكَّ فى أنَّه غير مقصود فى سقط الزند . أى مصدرُه شىءٌ فى نفس الشاعر . ولسنا فى حاجةٍ إلى أن نبحثَ عن هذا الشىءِ بعد ما بينَهُ لنا أبو العلاء فى قوله : « إنه وحشىُّ الغريزة ، إنسىُّ الولادةِ » . فهذه الغريزةُ الوحشيةُ ، يستحيلُ أن يصدرَ عنها

إنسى الشعرِ ، وكما أن صاحبَها غريب الأطوارِ فشعرُه وآثارُه الأدبيةُ ، ينبغى أن تكون مثله . على أنَّ هذه الغريزة الوحشيَّةَ ، لم يشتدَ تأثيرُها فى شعرِ الرجلِ ، إلا بعدَ أن اعتزل الناس وأخذ نفسه بهذا القانون الصارم الذى قدَّمنا وصفَه . فأعانَ هذه الغريزةَ على وحشيتها واشتداد آثارِها .

٢

أما فى طوره الثانى ، فلم يبلغ الغموضُ من القوَّة ما بلَغه فى الطَّور الثالث . وذلكَ لأنَّ أبا العلاء كان شديدَ الحرص فيهِ على التقليد والاحتذاء . وعلى أن يتصل فى شعره بأهل عصرِه . ومن هنا ظهرَ روحُ المتنبى فى أشعارِ هذا الطورِ حتى إنَّك لتقرأ لاميَّتَه التى مطلعها :

«ألاَ فى سَبيلِ المجدِ ما أنَا فاعِلُ»

فيخيَّلُ إليكَ أنكَ تقرأ فى ديوان المتنبِّى ، على أن أبا العلاء قد تأثَّر بغير المتنبِّى من الشعراء فتكادُ تلمحُ ابنَ الرومِى فى نونيَّته التى مطلعها :

علَّلانى فإنَّ بيضَ الأمانى فنيَت والظلام ليس بفانِ

ومصدرُ ذلكَ شدةُ عنايتِه بالشعر العباسىّ درسًا وتحصيلاً ، فسرَى أنه شرحَ ديوانَ البحترىّ والمتنبِّى وأبى تمَّام .

٣

وللعلومِ الفلسفيَّة تأثيرٌ ظاهر فى شعر أبى العلاء غير اللزوميَّات ، فإنَّكَ تجدُه فى سقط الزند وفى الدرعيَّات شديدَ الحرصِ على القصدِ فى الألفاظِ والمعانى ، وعلى تحقيقِ خواطرِه الشعريةِ تحقيقًا يشتدُّ أحيانًا حتى يملكه الاصطلاحُ العلمىُّ فيقولُ :

مُقيمِ النَّصْلِ فى طَرَفَىْ نقيضٍ يكونُ تباينٌ منهُ اشتكالا
تَبَيَّنُ فَوقَه ضَحْضَاحُ ماءٍ وتبْصرُ فيه للنَّار اشتعالا

ويقول :

والكبرُ والحمدُ ضدّان اتفاقُهما مثلُ اتفاقِ فتاء السن والكبر

فقولهُ فى طرفى نقيضٍ وضدانِ ، إنما هوَ من ألفاظِ المنطقِ ، وكذلك التباينُ والاشتكالُ .

٤

ولأبى العلاءِ فى أشعارِ الطورِ الأولِ والثانى ، ألفاظٌ وأساليبُ جاوز فيها المقيسَ من قواعدِ النحوِ ، كاستعماله هأنا من غير اسم الإشارة ، وإنما يستعملُ معه لأنَّ ها التنبيهِ لا تدخلُ على الضميرِ منفردًا ، وذلك فى قولهِ : « فهأنا لا أخونُ ولا أخانُ » . ومصدرُ هذا الخطأِ إنما هو تقليدُه للمتنبىِّ الذى كان يثِقُ بطبعهِ ، ولا يتقيَّدُ بقواعد النحو . فلمَّا كان الطورُ الثالثُ من أطور أبى العلاء ، حرصَ أشدَّ الحرص على تأثُّرِ الأقدمين فى نظمِهم ، فأصبحَ شعرُه من الصحَّةِ بحيثُ يبلغُ منزلةَ الاستشهادِ بهِ .

٥

وقد بيَّنَّا أن الشعرَ الجيدَ حقًّا لأبى العلاء ، إنما هو شعرُ الطوْرِ الثالثِ ؛ لأنَّ شخصيَّةَ الشاعر وعواطفهُ تظهرُ فيه .

تكادُ العاطفةُ الدينيَّةُ لا تظهرُ فى سقط الزَّند ، بل ربَّما نمَّ هذا الكتاب على الشاعر بضعف الأثرِ الدينىِّ فى شبيبته ، وأنه لا يتخذُ هذا الأثرَ إلاَّ لونًا ظاهرًا . وليسَ حظ الدين من سقط الزَّند ، بأكثرَ من حظه فى الدرعيَّات ؛ أى أنهُ لا يكادُ يوجدُ ولا يحسُّ . فأما اللزوميات فبيانُ الأثرِ الدينىِّ فيها يتصلُ بغير هذا الفصل .

٦

من هُنا يظهرُ أن أبا العلاء قد كان شاعرًا كشعراء عصرهِ فى الطورِ الثانى . ثم أصبح فى الطورِ الثالث متميزًا فى نفسهِ بخصائصه التى قدمْناها ، فمنَ الحقِّ أنه قلَّدَ المتنبى ، ولكن من الحقِّ أن هذا التقليدَ قد كان فى عصر الشبيبة وحده ، ولقد يزعمُ أناسٌ ، أن أبا العلاء ليس إلا صورة من صورِ المتنبى . وهوَ

وهمٌ مصدرهُ قلةُ الدرس الصحيح . فإنَّ أبا العلاء كما قدَّمنا شديدُ الاعتراف بشخصيته ، قليلُ الفناءِ فى غيره ، فإذا شئنا أن نقارن بينهُ وبين المتنبى ، كانَت الفروقُ بينهما ظاهرةً واضحةً .

٧

فالمتنبى واضحُ اللفظِ ناصعُ الأسلوب ، وأبو العلاء غامضُهما غموضًا ما ، والمتنبى حكيم ينتحلُ الحكمةَ ويتكلف الفلسفةَ ، وأبو العلاء حكيمٌ حقًّا ، وفيلسوفٌ لا يعرف التكلف ولا الانتحالَ ، والمتنبى متكسبٌ بشعره ، وأبو العلاء لم يذقْ لشعرِه ثمرةً ماديَّةً فى حياته . والمتنبى على رفعةِ قدره وعزَّةِ نفسه ، محبٌّ للدنيا متهالكٌ عليها ، قد مدحَ الملوكَ والأمراءَ والوزراءَ لنيل الثروةِ ، أو الإمارة . وأبو العلاء مبغضٌ للدنيا ، زاهد فيها ، مزدرٍ لطلابها . ولقد ظلَّ أبو الطَّيِّبِ يكدحُ طولَ حياته ، فى طلب الدُّنيا حتى قتلته ، بينما ظلَّت الدنيا تكدَحُ فى طلب أبى العلاء حتى قتلَها .

هذه فروق ظاهرةٌ بين الرجلين فى سيرتهما وأخلاقهما . ولها الأثرُ العظيمُ فى شعرِهما . ولقد كان المتنبى متكبرًا تياهًا ، وكان مع كبرِه وتيهه ، لا يأنفُ أن يرتزق بالشعر . أما أبو العلاء فكان متواضعًا ، وكان مع تواضُعه ، يأنفُ أن يكون لأحد عليه فضلٌ . فحبُّ المال والتماسُه من الملوكِ والأمراء ، اندفع بالمتنبىّ إلى الكذب والمينْ . وجعل حكمتهُ صنعةً ، وفلسفتَه شركًا لاصطياد الأموال . والاستهانةُ بأمر الدنيا جعلت أبا العلاء شديدَ الحرص على الصدق ، عظيمَ الحذَر من انتحال الزور . فكانت حكمتُه صادقةً . وفلسفتُه فطريةً . ومن هنا استجاب المتنبى إلى الخيال ، وامتنع أبو العلاء عليه . وكان المتنبى غنيًّا شحيحًا ، وكان أبو العلاء فقيرًا كريمًا ، وكان المتنبى شديدَ الحرية فى اللغة ، لا يحفِلُ بالقياس ، ولا يأبه للقواعد ، ولا يعنيه أن يتأثرَ الطريقةَ القديمةَ بل يُبيحُ لنفسه أن يخترعَ الأساليب وأن يخالف القواعدَ إلى النظم ، حتى كثرَ قولُ الناس فيه وطعنهم عليه . وقد سلك أبو العلاء طريق المتنبى فى الطور الثانى من حياته ، ثم بدا له فعدل عنه ، واتخذ طريق الجاهليين والإسلاميين من العرب ، غير مفرِّط فى

حظه من أساليب عصره ؛ فقد اصطنع البديع وهو حضرى مهلهلٌ فكساه ثوبًا من ثياب البادية ، وعلى الجملة كان شعرُ أبى العلاء فى عصره كالذى يسميه الفرنجُ الآن (كلاسيك) . وكان شعر المتنبى يوشك أن يكون حرًّا لولا أنه التزمَ طريقةَ العرب فى الوزن والقافية . ولعلَّ الدرسَ اللغوىَّ الذى لزم أبا العلاء بمعرَّة النعمان تسعًا وأربعين سنةً ، هو الذى جعلهُ أعرابىَّ الشعر والنثر ، وإن أبَتْ فلسفتهُ أن تسبغَ على شعرهِ ثوبَ السذاجةِ البدويةِ . فالبيتُ من الشعر يقولهُ الأعرابىُّ متين اللفظِ والأسلوبِ ، ساذج المعنى ، قليلَ التركيبِ ، أما المعرى فله من البداوة متانة اللفظ والأسلوب . فأما سذاجة المعنى وقلة تركيبه فليسَ لأبى العلاء منهما شىء . ومن المعقولِ ألا يكونَ له منهما حظٌّ . فإن الدرسَ اللغوىَّ قادر على إصلاح ملكتهِ لا على مسخِها ، وليسَ من الممكن أن ينتجَ الدرسُ المتعمقُ فى اللغةِ والفلسفةِ جميعًا إلا هذا المزاجَ . للفلسفة المعنى والتصوُّرُ ، وللغة اللفظ والأسلوبُ . والمتنبى وإن كثرت فى شعره الألفاظُ الفلسفية لا يبلغُ مبلغَ أبى العلاء فى كثرةِ الاصطلاحات العلميَّةِ من كلِّ فنٍّ . وليس شىءٌ من ذلك لأحدهما بعيب ، ولكنهُ يدلُّ على أن أبا العلاء كان أكثرَ من أبى الطيب تحصيلاً للعلم ، واستظهارًا لفنونهِ ، واحتكامًا فى ألفاظهِ واصطلاحاته ، وتصرُّفُ أبى العلاء باصطلاحات العلم هذا النحوَ من التصرُّف ، كسَبَ شعرَهُ ظرفًا ليس لأبى الطيب ، وكلا الشاعرَين عفيفُ اللفظ لا يعرضُ للفحشِ ولا للخناء ، إلاَّ أنَّ للمتنبى كثيرًا من الغناء الجميل ، وشيئًا من الهجاءِ المقذعِ ، أما أبو العلاء فلم يكُنْ له من هذا الفنِّ شىءٌ . وأبو الطيب فخورٌ محسنٌ للفخرِ ، وأبو العلاء دونَ منزلتهِ فى هذا الفنِّ أيضًا . وأبو الطيب مدَّاحٌ مجيدٌ ، وأبو العلاء حينَ كره الخيالَ لم يُحسنْ هذا الفنَّ . وكلاَ الشاعرَين يُجيدُ الرِّثاءَ ، إلاَّ أنَّ أبا العلاء على إقلاله فى هذا الفنِّ أحذقُ من المتنبى فيهِ .

٨

وليسَ فى شعراء العرب كافةً ، من يشاركُ أبا العلاء فى خصال امتازَ بها : منها أنه أحدثَ فنًّا فى الشعر ، لم يعرفْه الناسُ من قبلُ ، وهو الشعرُ الفلسفىُّ

الذى وضعَ فيه كتابَ اللزوميَّات ، وربما خيلَ إلى الناس أنَّ الشعرَ الفلسفىَّ قديمٌ عند العرب ، نظمَ فيه زهيرٌ ، وعدىُّ بنُ زيد ، وأبو العتاهية ، وأبو الطيب ؛ لأنهم طرقوا فنونَ الحكمة والزُّهد ، وأنواعَ العبرة والعظة . ولكنَّ هذا النوعَ من الشعر غير الذى أنشأهُ أبو العلاء . إنما أنشأ أبو العلاء فنًّا من الشعر استنزلَ الفلسفةَ من منزلتها العلميَّة المقصورة على الكُتب والمدارس ، إلى حيث تسلك طريقَ الشعر إلى قلوب الناس . نريدُ بالفلسفة أشملَ معانيها ، سواءٌ كانت فلسفةً إلهيَّةً أو خلقيَّةً أو رياضيَّةً أو طبيعيَّة . لا فرقَ بينَ هذه الفنون فى شعر أبى العلاء ؛ فقد أخذَ من كلِّ فنٍّ بنصيب .

فأما الشعراءُ الذينَ سبقتْ إليهم الإشارةُ فأقسامٌ ثلاثةٌ : قسمٌ لم يستق حكمتهُ إلاَّ من الفطرة وتجارب الحياة الساذَجَة ، ومن هؤلاء زهيرٌ . وقسمٌ يستقِى حكمتهُ من الدِّين ، ومن هؤلاء عدىُّ بنُ زيد ، فإنه استقَى حكمتهُ من الدِّين المسيحىِّ ، إذ كان عباديًّا متنصرًا ، وأبوالعتاهية فإنهُ استقَى حكمتهُ من الإسلام والموروث من أدب الفرس . وقسم استقَى حكمتهُ من الفلسفة الخلقيَّة ، كأبى الطيب ، فإن فلسفتهُ ليستْ إلاَّ تلك الكلمات التى كان يقولُها الفلاسفةُ ، ويكتبونَها بمعرض التحدُّث عن الأخلاق . أما أبو العلاء فقد عمدَ بشعره إلى إثبات النظريَّات الفلسفيَّة ، فى الطبيعة والرياضة والألوهيَّة والأخلاق ، فهو يقولُ مثلاً فى إثبات أن الأبعادَ لا تتناهى ، وهى مسألة من مسائل العلم الطبيعى :

ولو طار جبريلٌ بقيةَ عمره ... من الدهرِ ما استطاع الخروجَ من الدهرِ

ويقول فى تعريف الزَّمان وهىَ من مسائل العلم الطبعىِّ أيضًا :

الساع آنية الحوادث ما حوت ... لم يبد إلا بعد كشف غطائها
وكأنَّمَا هذا الزمان قصيدةٌ ... ما اضطر شاعرُها إلى إيطائها

ويقولُ فى علم النفس حين أراد أن يبين صدورَ الشهوات عن القلب :

القلب كالماء والأهواء طافيةٌ ... عليه مثل حباب الماء فى الماء

ويقولُ حين أراد أن يقررَ مذهب المعتزلة فى وجوب الإذعان لحكم العقل خاصة :

كذَبَ الناسُ لا إمامَ سوى العقـ ـل مشيرًا فى صبحه والمســاء
فإذا ما أطعتَه جلبَ الرحـ ـمةَ عندَ المسير والإرســاء

ويقول فى الردّ على أصحاب الديانات ، فيما يثبتُون من تنزيهِ اللهِ عن الزمان والمكان ، وقد سلك فى هذه الأبيات طريقَ المتكلمين فى المناظرة :

قُلْتُمْ لَنَــا خالقٌ قــديمٌ قلنَــا صدقْتُمْ كذَا نَقولُ
زعمتُمــوه بــلا زمــان ولا مكان ألا فقُــولُوا
هــذَا كلامٌ له خَبِىءٌ مَعناهُ ليستْ لنا عقــولُ

ويقول فى الاستدلال على نفى البعث بمذهب أرسطاليس فى قدمِ العالمِ :

إن صحَّ ماقالَ أرسطاليسُ من قدَمٍ وهبَّ من مات لم يجمعْهم الفلكُ

فهذا النحوُ من الشعر لم يعرفه العربُ قبل أبى العلاء . فإن قال قائلٌ إن ابنَ سينا قد نظمَ قصيدته فى النفس فقال : « هَبَطَتْ إليك من المحلّ الأرفع » قلنا : فإن ابنَ سينا لم يضعْ ديوانًا شعريًا ، أحاط فيه بفنونِ الفلسفة ، وتلك خاصةٌ لم يشارك أبا العلاء فيها أحدٌ ممن قبله ولا بعدَه . ليس يعنينا الآن أن تكونَ هذه الخاصَّةُ محمودةً أو مرذولةً . فقد أخذْنا أنفسَنا فى صدر هــذا الكتابِ ، بأن نقررَ الأشياء كما هى ، لا نحمدُها ولا نذمها ؛ إذ ليس الحمدُ والذمُّ من عمل المؤرّخين ، ولا مما يتناوله فنُّ التاريخ .

٩

مرجليوثُ اجتهدَ فى أن يقارنَ بين أبى العلاء وأبى العتاهية فى هذا الشعرِ الفلسفىِّ ، فزعمَ أن بين الرجليْن تشابهًا ، وتابعهُ على ذلك سلمونُ . ولقد كنَّا نحبُّ أن نجتهدَ فى بيان هذا الوهم الذى وقع فيه هذان العالمان ، لولا أنَّ دائرةَ المعارف الإسلاميَّة التى يكتبُها المستشرقُون سبقت إلى هذا ، فجعلت قياس أبى العلاء إلى أبى العتاهية ظلمًا وحيفًا . إذ كان أبو العتاهية يستقى من الدّين ويتقيَّدُ به ، وكان أبو العلاء يستقى من الفلسفة ولا يتقيَّدُ بالدين . وهذا الفرقُ ظاهرُ الأثرِ فى شعر الرجلين . وخصلة أخرى لم تلتفت إليها دائرةُ المعارف ، وهى أنَّ أبا العتاهية ، على كثرة ما استعانَ بالدّين فى زهده الذى

ملأ به ديوانَه ، كانَ فاسقًا مشتهرًا بالمجونِ ، بخلاف أبى العلاء الذى استملى الفلسفةَ واتهمَهُ الناسُ بالزندقةِ والإلحاد ، فإنهُ لم يَملْ إلى لهوٍ ولم يذهب مذهبَ مجون .

هذا الفنُّ الشعرىُّ الفلسفىُّ الذى أنشأهُ أبو العلاء ، قد وهبَ اللغةَ العربيَّة فى اللزومياتِ مزاجًا خاصًّا ، يألفهُ أهلُ الجدّ ، ويميلُ إليه أصحابُ الحزمِ : مزاجٌ لا يعرفُ الباطلُ إليه سبيلاً ، ولا يملكُ الضعفُ النفسىُّ عليه سلطانًا . ثم هوَ مع ذلك ممثلٌ لعواطف الشاعر تمثيلاً صحيحًا ، فليس ينقصُه من مزايا الشعر المعروف إلاَّ الكذبُ وقلةُ الغريب .

١٠

لأبى العلاء خاصةٌ أخرى وهى أنهُ أولُ من أفرد ديوانًا خاصًّا فى موضوع من الموضوعات التى ألَّفها الشعراءُ . وهذا الديوانُ هو الدرعياتُ التى لم يتناولْ فيها إلاَّ وصفَ الدروعِ . نعم إنَّ لأبى نوَاسٍ فى الطردِ والصَّيدِ ، وفى الغلمان والخمرِ شعرًا لو جمعَ منفصلاً لكانَ ديوانًا خاصًّا . وكذلكَ غيرهُ من الشعراء . ولكنَّ أبا العلاء هو الذى سبق إلى هذه الفكرة من غيرِ أن يسبقَه إليها سابقٌ . فهذه الخصائصُ هى التى ميَّزت أبا العلاء من شعراء عصره ، بل من شعراء المسلمينَ كافةً ، فلننتقل الآن من شعر أبى العلاء إلى نثره .

نثره

١

لأبى العلاء النثرُ الكثيرُ ، ولكن ما بقىَ لنا منهُ النذرُ اليسيرُ ، فليس لدينا من نثرِه إلا رسائلهُ ، ورسالة الغفرانِ ، ورسالة الملائكة . على أن هذا المقدارَ القليلَ ، بل شيئًا منه ، يكفى فيما نريدُ من درس الملكة الكتابيةِ لأبى العلاء . فإن شخصيتَه تتمثلُ فى نثره كما تتمثلُ فى شعره ، بحيثُ يكفى القليلُ منهما لنتبينَ صفات الرجل ومنزلتَه فيهما . فالزمانُ (وإن أضاعَ أكثرَ الآثار

العلائية) لم يضعْ شخصَهُ ؛ لأن هذا الشخصَ كان خالدًا بطبعه ، وليس للزمان على الشيء الخالد من سبيل . فليس شخصُ أبي العلاء هو الذى تأثرَ بضياعِ آثاره ، وإنما الآدابُ وعلومها هى التى فقدت بضياعِ هذه الآثار شيئًا عظيمًا .

لم يحفظْ لنا التاريخُ من نثر أبى العلاء فى صباه شيئًا . ولعله لم يتكلف النثرَ فى هذا الطورِ ، وإن تكلف الشعرَ . وكما قسمنا شعرَه إلى أطوارٍ ثلاثة فإنا نقسمُ نثرَه إلى طورين : أحدهما كُتِبَ فى شبيبته قبل العُزلة ، والآخر كتب بعدها . وليسَ لدينا مما كتب قبل العزلة شيءٌ قليل ؛ فإن رسالةَ المنيح ، ورسالة الإغريض ، اللتين كتبهما إلى الوزير المغربىّ أبى القاسم ، قد كُتبتا فى هذا الطور ؛ إذ فيهما ذكرُ أبى الوزير ، والدعاء له (وهو الذى قتله الحاكمُ قبل سنة أربعمائة كما قدمنا) . ولدينا رسائله التى كتبها ببغدادَ إلى خاله أبى طاهر فى شأنِ كتب السيرافى ، ورسالتهُ إلى أهل المعرَّة قبل أن يصلَ إليها ، فأما ما كتب بعد العزلة فكثيرٌ أيضًا . وحسبكَ برسالة الغفران ورسالته التى كتبها إلى خاله أبى القاسم فى رثاءِ أمه ، والتى كتبها إليه يعزيه عن أخيه الذى ماتَ بدمشق ، والتى أجابَ بها أبا الحُسين أحمدَ بن عثمانَ النكتى البَصْرى وغيرها . . . ونحنُ واصفونَ نثره فى هذين الطورين ، ثم باحثون عن خصائصه العامة ، وعن الفنون التى تناولها فى النثر ، كما بحثنا عن ذلك فى الشعر .

نثرُه فى طورِ الشباب

إذا كان شعرُ أبى العلاء فى طور الشباب كثيرَ التكلف ، قليلَ المتانةِ ، فإن نثرَه كذلك فى هذا الطورِ . وإنما كثُرَ فى كلامهِ التكلفُ حين حرص على إظهار التفوق ، والظفر بالإجادة ، فكأنه يُملى عن ميلهِ إلى النبوغِ .

لذلك لم تخلُ رسائلهُ من السجع ، بل قد تقرأ الرسالةَ كلَّها فلا تظفرُ بجملتين غير مسجوعتين . وكذلك لم تخلُ رسائلهُ من الغريب ، بل لا تكادُ

تمرُّ فيها بجملة خلَتْ من لفظ غريب . وحظُّ المبالغة فى نثرِ هذا الطورِ كحظها فى شعره ، وكما أن أوائل سقْط الزنْد ، قد عبث بها التكلفُ ، فحال بينها وبين تمثيل عواطفِ الشاعرِ ، فقد عبث التكلفُ برسائله أيضًا ، حتى ما تستطيعُ أن تدرسَ أخلاقهُ وميولَه الفطرية ، فيما كتب إلى أبى القاسم المغربى . وإنما هى ألفاظٌ مرصوفة ، وكلماتٌ قد قرنَ بعضها إلى بعض ، يزينها السجعُ ، وتختلفُ متانةً وضعفًا من حين إلى حين . وتظهرُ فيها المبالغةُ التى لا تأتلفها العادة ، ولا يطمئنُّ إليها العقلُ ، انظر إلى قوله فى رسالة المنيح :

« إن كان للآداب — أطالَ اللهُ بقاءَ سيدنا — نسيم تضوَّع ، وللذكاء نار تشرق وتلمعُ ، فقد فغَمَنَا على بُعد الدار أرَج أدبه ، ومحا الليلَ عنا ذكاؤه بتلهبه ، وحوَّل الأسماع شَغوفًا غيرَ ذاهبةٍ ، وأطلع فى سُويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة ، وذلك أنا معشرَ أهلِ هذه البلدةِ ، وهب لنا شرفٌ عظيم ، وألقِىَ إلينا كتابٌ كريم ، صدر عن حضرة السيدِ الحبرِ ، ومالِك أعنة النظم والنثرِ . قراءته نُسكٌ ، وختامه بل سائرُه مِسكٌ ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

فهل ترى فى هذا الكلام لفظًا قيمًا ، أو أسلوبًا عذبًا ، أو صناعة جيدة ؟ وهل تجد إلا كلفًا بالسجع ممقوتًا ، وحرصًا على المبالغة مرذولاً ، وتكلفًا هو أشبهُ بتعمل الأطفال ؟ وإلا فما قوله : « وللذكاء نارٌ تشرق وتلمع ؟ » أليس لفظ تلمع هذا قد أكره على مكانه ليؤدّى حقَّ السجع ؟ ثم انظر إلى قوله : « فقد فغمنا على بعد الدار أرَج أدبه ، ومحا الليلَ عنا ذكاؤه بتلهبه » فإن الفطرة تقتضى أن يقول « تلهب ذكائه » ، ولكن حب السجع اضطره إلى أن يعدل عن الفطرة إلى التكلف . وكذلك قوله : « ذلك أنا معشرَ أهل هذه البلدة ، وهب لنا شرف عظيم ، وألقى إلينا كتاب كريم » ليس إلا من بارد اللفظ ، وفاتر السجع ، وإن عزَّ علينا أن ننال كلام أبى العلاء بهذه المقالة ، إلا أنا لا نغض منه ، وإنما نصف حاله . وليس قوله : « السيد الحبر ، ومالك أعنةِ النظم والنثر » بأقل بردًا وفتورًا من سابقه .

ولئن كان قد أساء فى طالعة هذه الرسالة ، فقد أحسن بعضَ الإحسان فى

طالعة رسالة الإغريض ، إذ قال : « السلام عليك أيتها الحكمة المغربية ، والألفاظ العربية ، أىّ هواء رقاكِ ، وأى غيث سقاكِ ، برقه كالإحريض ، وودْقة مثلُ الإغريض . حللتِ الرَّبوة ، وجللتِ عن الهبوة ، أقول لك ما قال أخو بنى نُمير لفتاةٍ بنى عُمير :

زكا لك صالحٌ ، وخلاكِ ذمّ وصبَّحك الأيامنُ والسعودُ »

أحسنَ بعض الإحسان حين تمثلَ الحكمةَ فى شخص أبى القاسم ، فخاطبها هذا الخطابَ الرقيقَ ، وإن كان السجعُ والتكلفُ لم يفارقاه .

فى هذا الطور ، نمَّت رسائل أبى العلاءِ بشىء لا نعرفه فى سيرته ؛ وهو الاجتهاد فى التبرؤ مما يخالف رأى الجماعة ، فقد تبرَّأ فى رسالة المنيح من مقالةِ الطبعيينَ فى السحاب مرة ،ومن المنجّمين والفلاسفة مرةً أخرى . وليس يدلُّ ذلك إلا على أن حريته العقلية لم تكن قد نضجت بعد .

نعم إنه كان يرى التقيَّة كما سنثبتُ ذلك فى المقالةِ الخامسةِ ، ولكن تقيته كانت سلبيةً : أى أنه كان يكنى عن آرائه ولا يَرُدُّ عليها .

أبو العلاءِ ذمَّ السجعَ فى رسالة المنيح إذا جاء متكلفًا . والعجب أنه نسى مكانه من هذا التكلف . وليس يدلُّ ذلك إلا على أن ملَكته فى النقدِ ، لم تكن قد نضجت أيضًا :

تكثر الاصطلاحاتُ العلميةُ فى نثر هذا الطور ، ولا سيما اصطلاحات العلوم اللغوية ، فانظر إلى قوله فى رسالة الإغريض : « فحرس الله سيدَنا حتى تُدغم الفاءُ تلك حِراسة بغير انتهاء ، وذلك أن هذين ضدان ، وعلى التضادّ متباعدان . رِخو وشديد ، وهاوٍ وذو تصعيد ، وهما فى الجهرِ والهمس ، بمنزلة غدٍ وأمس ، وجعل الله رتبتَه التى كالفاعل والمبتدأ ، نظيرَ الفعل فى أنها لا تخفضُ أبدًا » . فانظر إليه : استعارَ من التجويدِ ، والنحوِ ، والصرف ، على أنه يمضى فى ذلك حتى يستعيرَ من العروض والقافيةِ ، وكأنه حين فقد الإحاطة بما فى الأرض والسماء ، من مناظر الجمال التى يستمدُّ منها الشعراءُ والكتابُ تشبيههم ، ويؤلفون منها خيالهم عَمد إلى ما وَعَى صدره من علوم اللغة ، فاتخذ منها لتشبيهه مادةً ،

وخياله مجالاً ، أنى من ذلك بالشيء الطريفِ ، فصدق حين قال عن نفسه فى سقط الزند :

وقد تعوَّضتُ من كلٍّ بمشبهــه فما وجدت لأيام الصّبا عوضــا

على أن رسالته إلى المعرةِ ، تدل على انتقالٍ غريبٍ فى ملكتهِ الكتابية ؛ فإنها كانت فى آخرِ طورِ الشباب ، وأول طورٍ العزلة الذى تغيرت فيه حياةُ الكاتب تغيرًا ظاهرًا .

نثره فى طور العزلة

٣

يَبهرُك من رسالته إلى أهل المعرَّة حين تقرؤها ما ترى فيها من تمثيلِ شخصِ الكاتبِ وعواطفهِ ، حتى يخيل إليك أنك إنما تسمع ألفاظها من كاتبها ، وترى شخصه بين سطورها ، وكأنها صورةٌ شمسيةٌ تمثل هذا القلبَ الذى ملكهُ الحزنُ على فقد الأحياء ، وفراقِ الأخلاّء ، وإصفار اليد من المال ، وقيام العقبات بينه وبينَ دور العلم ، وانصرافه عن لذات الحياة ، وتجلده على آلامها . كل ذلك تشفُّ عنه هذه الرسالةُ ولو أن ألفاظها خشنةٌ نابية .

مصدر هذا أن الألفاظَ ليست هى التى تناجيك ، وإنما تناجيك من الكاتبِ نفسٌ قد طرحت التصنع ، وخلَعت ثوب الرياءِ ، وبدت لك هى ، غير متكلفة إظهارَ فضيلة ، ولا محتالة فى إخفاء نقيصة . فهذا هو أظهر الفروقِ بين نثر أبى العلاء فى طَوْرَيْهِ ، تجده فى كل ما كتبَ بعد رجوعِه من بغداد . وقد بينا فى المقالة الثانية مقدارَ ما يمثله رثاؤه لأمه من ذلك . ولقد كان يحرص أبو العلاء أشد الحِرْص ، على أن يخفيَ نفسَه على القارئ فى بعض رسائله ، ولكن شخصَه كان يأبى إلا الظهورَ ؛ كان يُلقى بينه وبين القارئ أستارًا صَفيقةً من غريب اللفظ ، وحُجبًا كثيفةً من ثقيل السجع ، ويقيم حوله أسوارًا منيعةً من المباحثِ اللغوية والصور الدينيةِ ، ولكن عواطفَه الحادةَ ، تأبى إلا أن تخترقَ

هذه الموانعَ كافةً ، لتصلَ إلى قلب القارئ فتتركَ فيه ندوبًا : لدغاتُ الجمر أخفُّ منها وقعًا ، وأهونُ منها احتمالاً .

ذلك حالهُ فى رسالة الغفران ، فكم اتخذَ حولهُ من الشعراء الجاهليينَ جنودًا يذودون عنه ، ويناضلون منْ دونه ، وكم أسبغَ على نفسه من علوم اللغة وآدابها دُروعًا تعصمهُ من وَصْمةِ الإلحاد ، وكم ضحى من زنادقةِ العباسيينَ بضحايا ليعلنَ أنه مسلم . ولكنَّ هذا الكيدَ كله ، لم يزد الناس إلا علمًا به ، واتهامًا له ، حتى قال الذهبىُّ : « إنه صاحبُ الزندقةِ المأثورة » ، واستدلَّ على ذلك برسالة الغفران.

أبو العلاء هو أظهرُ الكتَّاب المسلمينَ شخصيةً ، وأوضحهم عاطفةً فى نثره ؛ ذلك لأنه لم يستطعْ أن يكونَ منافقًا ، ولم يوفق إلى تكلف الحيلة فى إخفاء نفسه ، وإن وُفِّق التوفيق كلَّه فى تكلف السجع والغريب .

لقد حكَّم قانونه الفلسفى الصارم فى نثرِه ، كما حكَّمه فى شعرِه وحياته ، فالتزَم فى الكتابةِ ما لا يلزمُ من إيثارِ الغريب ، وتصريفِ اصطلاحاتِ العلم فى التعبير عن العواطف ، والدلالةِ على الميول ، فهو يؤدى كثيرًا من الأغراض بتلك الضروب العروضيةِ ، التى ما أراد الخليلُ بها إلا أن تدل على مجردِ الأوزانِ والتفاعيل .

من أظهرِ خصالِ أبى العلاء فى نثر هذا الطور ، حرصُه على الاستقصاء التامّ ، بحيثُ إذا عرض لمسألة لغوية أو نحوية فى طريقه لم يستطع أن ينصرف عنها حتى يستقْصِيَها ، ولقد اشتدَّ ضيقُ أهلِ الجنة وأهلِ النار من الشعراء والرواة به ، لكثرة ما ألحَّ عليهم فى النقدِ والمناظرة ، حتى نفِد صبر إبليسَ الذى لا ينفَد صبرُه ، فأغرى الزبانيةَ أن يقذفوه فى النار ، وحتى أوقع فنونًا من الملاحاةِ بين أهل الجنة الذين لا يعرف الخلافُ إليهم سبيلاً .

هذا الاستقصاءُ يرضى العالِمَ المحقق ، ولكنه يُسئِم القارئَ المتعجلَ . لذلك كان الملَلُ إلى نفس القارئ فى نثر أبى العلاء سريعًا ، إلا أنك إذا درست الرجلَ ، وفهمت روحَه وعواطفه ، أصبح كلفك بعِشرته فى نثرِه وشعره ، ألزم لك من ظِلِّكَ . وهذه من أخصِّ الصفات التى امتاز بها أبو العلاء .

أما المبالغةُ فقد قلَّت ، ولكنها لم تَنْمَحِ . على أن أبا العلاء قد اتخذَ لهذه المبالغة دواءً حسنًا ، فما تجد مبالغةً فى نثره إلا وقد أحاطَها من الألفاظ بما يكفُّ من غُلَوائها فتراه يستعمل كاد مرَّة ولوْ مرة أخرى .

قلنا إن الغريبَ والسجعَ يلزمان أبا العلاء فى كتابتِه ، ولكن من الحقِّ علينا أن نقسم نثر أبى العلاء قسمين : أحدهما ما يذهبُ فيه مذهبَ الإنشاء والتنميق ، وهذا لا بدَّ فيه من السجع والغريب . والآخر ما يذهبُ فيه مذهبَ القصص التاريخى أو العلمى ، وهذا يقل فيه السجع والغريبُ ، حتى لا تكاد تعثر بهما . لذلك انقسمت رسالةُ الغفران قسمين . فأما ما كانَ من وصف الجنة أو نعيمِها ، أو النار وجحيمها ، فالسجعُ فيه لازمٌ ، والغريبُ فيه موفورٌ ، وأما ما وصف به الزنادقةَ فسهلٌ مرسلٌ يسيغُه السمعُ ولا ينبو عنه الطبعُ . وكذلك انقسمت رسالتُه التى عزَّى بها خالَه أبا القاسمِ عن أخيه هذين القسمين ؛ فأما ما اشتمل على مصارعِ الأنبياء والملوكِ وأعلامِ الناس ، فسائغُ اللفظِ وإن التزم فيهِ السجع . وأما ما وصفت به مصارعُ الحيوان فلن تصل إلى فهمه إلاَّ بعد العَناء الشديد .

فنونهُ النثرية

طرق أبو العلاء بنثرِه المدحَ والعزاءَ والوصفَ ، ولم يطرق الفخرَ ولا الهجاءَ ولا غيرهما من الفنون التى يطرقها الكتابُ ؛ فأما المدحُ فقد كتبَ فيه رسالةَ المنيح ورسالةَ الإغريض وعَرَض له فى غيرِ هاتين الرسالتين .

والمجاملةُ فى مدح أبى العلاء النثرى ظاهرةٌ ، وكثيرًا ما اتقاها بالمحاولات اللفظية والاستطراد اللغوى . وأما العزاءُ فقد كتبَ فيه رسالتين نابهتين ، رثى بإحداهما أمه ، وقد قدَّمْنا وصفَها ، ورثى بالأخرى خالَه ، ولكنها لا تدلُّ على شىء من الحزنِ والأسفِ ، وإنما هى تسليةٌ وتعزية وقد سلكَ فيها الكاتبُ طريقتين : إحداهما طريق القصصِ فألمَّ بمصارعِ الأنبياء : من العرب وبنى إسرائيل ، وبعواقب الملوك : من سبأ وحمير ومن المناذرةِ والغسانيةِ والأكاسرةِ ، وبمهالك الأعلام من فرسانِ العربِ وأجوادِها ، ثم ذهبَ مذهبَ أبى ذؤيب

الهُذَلى فى عَيْنِيتِه : من وصفِ مصارعِ الحيوانِ ، فَتَتَبَّع الآسادَ والفيلةَ إلى الذرّات والنمال ، ولم يدعْ من الحيوانِ الذى ألِفَه الناسُ فى الأرضِ والسماء وحْشيًّا ولا إنسيًّا إلا ذكر مَصْرَعَه مع التفصيل الشديدِ . وأما الوصفُ فلم تخلُ منه رسالةٌ من رسائلِ أبى العلاء . وشأنهُ فى الوصف النثرىّ كشأنهِ فى الوصفِ الشعرىّ ؛ أى أنهُ يستمدُّ معانيه مما يحفظ أكثر من استمدادها مما يحس . وليس وصفهُ لمصارعِ الحيوانِ إلا خلاصة ما قال الشعراءُ الجاهليونَ والإسلاميونَ فيها ، لقد لخَّصَ فى رِثائهِ لخالهِ عينيَّةَ أبى ذُؤَيْب ، ومعلقةَ لبيد ، وأكثرَ شعر الشَّماخ بن ضرار .

النقد

٢

لأبى العلاء فى النقد ملكةٌ قويةٌ ، كونتها له دراستُه للحياة وأخلاق الناس ، وتعمقهُ فى الدرسِ العلمى . وهذا النقدُ ينقسمُ قسمين : أحدهما النقدُ العلمىُّ والأدبى ، وتمثله رسالةٌ بعثَ بها إلى أبى الحسن أحمد بن عثمانَ النكتى البَصْرى ، ينقُدُ فيها شيئًا من شعرِه فيمزجُ النقدَ بالسخريةِ مزجًا ظريفًا ولكنه لَذّاع . والآخر نقد العاداتِ والأخلاقِ ومألوفِ الناس ، وتمثلهُ رسالة الغفرانِ ، فقد نقدَ فيها كثيرًا من مألوفِ الناسِ ، ولكنه سلكَ إلى هذا النقدِ طريقَ السخرية ، فكان على خصومه شديدَ الوقع ، وخازَ اللذعِ ، لا يفوقُه فى ذلك إلاَّ بديعُ الزمان الهمذانىّ فى رسائله . وإنما سبق البديعُ إلى هذا الفنّ ؛ لأنه ترك الاحتشامَ والوقارَ ، ولم يأنفْ من ألفاظ يستحى أبو العلاء أن يفكرَ فيها .

السخرية

٣

من قرأ رسالةَ الغفران ، وأرادَ أن يفقهَ معناها حقَّ الفقه ، احتاجَ إلى دقةِ ملاحظةٍ ، وحذقِ فِطنة ، وبُعْدِ نظر ، ونورِ بصيرة ، وإلى أن يدرسَ

روحَ الكاتبِ فيحسن درسَه ، ويعرف أغراضَه ، فإذا لم يوفقْ إلى ذلك مرت به رسالةُ الغفرانِ وهو يظنها من أقومِ كتبِ الدين .

ذلك أن أبا العلاء يسلكُ فى هذه الرسالةِ إلى النقدِ ، مسلكًا خفيًّا ، تكادُ لا تبلُغهُ الظنون ، ولولا أن مؤرخيه قد كانوا يسيئونَ الظنَّ به ، لما اهتَدوا إلى ما فى رسالةِ الغفرانِ من النقدِ . على أنهم لم يفهموا منه إلاّ الظاهرَ الذى يُلمس ، والصريح الذى لا يُشك فيه : كالأشعارِ الإباحية التى رواها عن بعض الزنادقةِ . فأما نقدُه الخاص فقلما فَطِنوا له . ولسنا نشك فى أن عليًّا أبا منصور بن القارح ، الذى كتبت إليه هذه الرسالة ، قد كان شديدَ الزندقة أو شديدَ الغفلة . فإن أبا العلاء لا يكتبُ بهذه الرسالةِ إلاّ وهو واثق منه بإحدى الخصلتين . وتدلنا رسالةُ الغفرانِ على أن هذا الرجلَ كان معاقِرًا للخمرِ ، متهالكًا عليها ، حتى ألح عليه أبو العلاء فى أن يتوبَ . ولسنا الآن فى معرض الكلام على رسالةِ الغفران من حيث ما بينها وبين دين أبى العلاء من صلة ، وإنما نريد أن نبحثَ عنها من وجهين : أحدهما السخرية التى تشتملُ عليها ، والآخر الخيال الذى عمل فى تأليفها .

فأما السخرية فحسبكَ أن تسمعَ خلاصةَ القَصَصِ الطويل ، الذى ساقَه أبو العلاء لدخول على بن القارح فى الجنة . قام هذا الرجلُ من قبره يوم البعث فلبث فى الموقفِ أمدًا طويلاً ، حتى أعياهُ الحرُّ والظمأ ، وهو واثقٌ بدخول الجنة ؛ لأن معه صكَّ التوبة ، فلم يفهم معنى هذا الانتظارِ ، ففكرَ فى أن يخدعَ سَدَنَةَ الجنة بما كان يخدَعُ به الناس فى الدنيا من الشعر ، فأنشأ القصائدَ الطوالَ فى مدح رضوان ، وأنشدَه إياها فلم يفهم منها شيئًا ، لأنهُ لا يتكلمُ العربيةَ . فلما عَىَّ على بن القارح بأمره ، سأله : ما بالكَ لم تحفِل بقصائدى وقد كان يحفِلُ بها ملوكُ الدنيا ؟ ثم كانت بينهما محاورةٌ آيست على بن القارح من رضوان ، فانتقلَ إلى سادن آخر يقال له زُفَرَ وأعادَ معه القصةَ نفسَها . ولكن هذا الخازنَ نبهه إلى أن يتشفعَ بالنبى فى أمره . فاجتهد حتى وصلَ إلى حمزةَ ، فتوسلَ به إلى على . وإنه لفى طريقه إلى على وقد كلفه أن يظهرَ كتاب توبته ، وإنه لفى ذلك وإذا شيخه أبو على الفارسى ، قد ضاق

ذرعه بطائفة من شعراء البادية ، يخاصمونه فيما تأولَ من كلامهم . فنسىَ التوبةَ وأمرَ الشفاعة ، وهب إلى أستاذه فذاذ عنه أولئك الأعراب ، ثم رجعَ إلى على وقد فقد كتابَ التوبة ، ولكن عليًّا قد هـوَّنَ عليه الأمر ، وطلب منه شاهدًا على التوبة ، فاستشهدَ بقاضٍ من قضاةِ حلَب وقَبِلَ علىٌّ شهادَته . ولكن سقاهُ من الحوضِ ، وأيأسَهُ من دخول الجنة قبل الحساب فلم ير إلاَّ الحيلة . فذهب إلى شبابٍ من بنى هاشم فقال : لقد ألَّفْتُ فى الدنيا كتبًا كثيرة ، كنت أبدؤها وأختمها بالصلاة على النبىِّ وعترته ، فحقتْ لى بذلكم عليكم حرمة ، ولى إليكم حاجة ، قالوا : وما هى ؟ قال : إذا خرجتْ أمكم الزهراءُ من الجنة لزيارة أبيها ، فتوسلوا بها إليه فى أن يأذنَ بدخولى الجنةَ ، فقبلوا منه ثم نادَى مناد : يا أهلَ الموقف غُضوا أبصاركم حتى تمرَّ الزهراءُ . ومرت فاطمة فسلمتْ على أبنائها ، ورغبوا إليها فى أمر صاحبِهم فقبلت . وأشارَتْ إليه أن يتبعَها فتعلقَ بركابِ إبراهيم ابن النبىِّ ، ولم تكن خيلُهم تمشى على الأرض لكثرة الزحام ، إنما كانت تطيرُ فى الهواء .

وَصَلوا إلى النبى وشفَّع فيه ، وعادَ مع فاطمةَ وإخوتها ليدخلَ الجنة ، فلما بلغ الصراطَ لم يستطعْ أن يتقدمَ عليه قيدَ أصبع ، فبعثت إليه الزهراءُ جاريةً تعينهُ . فأخذت الجاريةُ كلما أسندَتْه من ناحية مال من الأخرى ، حتى أعياهُ ذلكَ وأعياها ، فقال لها : يا هذه إن أردت سَلامَتى فاستعملى معى قولَ القائلِ فى الدار العاجلة :

ستٌّ إن أعيـاكِ أمـرى فاحمـلينى زقَفـونه

فقالت : وما زقفونه . . . ؟ قال : أن يطرحَ الإنسانُ يديه على كتفى الآخر ، ويمسك بيديه ، ويحمله وبطنه إلى ظهره . أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفر طاب :

صَلحت حالتى إلى الخَلْف حتى صرتُ أمشى إلى الورا زَقَفُونَه

فقالت ما سمعتُ بزَقَفُونة ، ولا الجحجلول ، ولا كفر طاب إلا الساعة ؛ فتحمله وتجوز كالبرق الخاطف ، فلما جاوز قالت الزهراءُ عليها السلام : قد وهبنا لك هذه الجاريةَ ، فخذها كى تخدُمَك فى الجنانِ . فلما صار إلى بابِ الجنةِ قال له رضوانُ : هل معكَ من جَواز ؟ فقال : لا . فقال : لا سبيلَ للدخولِ

إلا به ، فعىَّ بالأمرِ وعلى باب الجنةِ من داخل شجرة صفصاف ؛ فقال أعطنى ورقةً من هذه الصفصافة ، حتى أرجعَ إلى الموقفِ فآخذ عليها جوازًا . فقال : لا أخرجُ شيئًا من الجنة إلا بإذن من العلى الأعلى (تقدس وتبارك) . فلما ضجرَ بالنازلة قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . لو أن للأمير أبى المُرَجَّى خازنًا مثلك ، ما وصلت أنا ولا غيرى إلى درهم من خزانته . والتفتَ إبراهيمُ (صلى الله عليه) فرآه وقد تخلفَ عنهُ فرجع إليه فجذبهُ جذبةً حصله بها فى الجنة .

فهذه الصورُ التى تمثلها هذه القصةُ الصغيرةُ ، تبين مقدارَ ما تشتملُ عليه رسالةُ الغفرانِ من السخرية الخفيةِ ، وأمثالها كثير .

الخيال

لم يخترعْ أبو العلاء فى هذه الرسالةِ شيئًا كثيرًا . وإنما وردت أقاصيصُ الوعاظِ بأكثرَ ما فيها ، فإذا كان فى الرسالة شىء . فهو التنسيق والسخرية ، على أنه قد أخطأ مواضعَ من الخيالِ كان حقه ألا يخطئها ، فإن ابن القارح فى أحد مجالسه ، جعل كلما تمنى لقاءَ رجلٍ من أهلِ الجنةِ ، نظر فإذا هو بين يدَيْه ، فلم يكن فرق بين سكانِ الجنةِ وبين أثاثها وفاكهتها فى ذلك . وكذلك أوقعَ الخلافَ والمهاترةَ بين أهلِ الجنةِ ، حتى كادَت تقعُ الملاكمة بين ابنِ القارح وبين رؤبةَ ، لولا أن توسطَ العجاجُ .

مهارته اللغوية

ولقد مرَّ ابن القارح بمدائن الجن فى الفردَوسِ ، فزارهم ، وسمع من أشعارهم ، فإذا أشعارٌ بلغت من غرابةِ اللفظ والأسلوبِ ، مبلغًا يخيل إلى سامعها أنه كلامُ الجنِ حقًا . وما نشك فى أن أبا العلاء هو الذى انتحلَ هذه الأشعارَ . أما معانيها

فلا تتجاوزُ ما رُوى فى الأخبارِ الدينية ، من أحوال الجنّ . والقولُ المفصلُ فى رسالة الغفران يحتاج إلى كتاب خاص ، نرجو أن نوفقَ إليه . وحسبُنا أن نقررَ الآن أن هذه الرسالةَ هى أول قصة خيالية عند العرب . والفرنج يشبهونها بكتاب (دانتى) الطليانى . الذى سماه La Comedié dévine وكتاب (ملتن) الإنجليزى الذى سماه (الجنةَ الضائعةَ) . وعندنا أن لقصةِ المعراج صلةً بهذه الأقاصيص .

خصائصه النثرية

٦

يختصُّ نثرُ أبو العلاء بما اختصَّ به شعرهُ ، من الغموض وكثرةِ الغريب ، لا يتصلُ بنثرِ عصره إلا بصلة واحدة ، هى السجعُ الملتزم . وللأمثالِ فى نثرِ أبى العلاء حظٌّ عظيم ، حتى إنك لتجزم بأن أبا العلاء أكثرُ الكتاب للأمثال استعمالاً .

تتصفُ آدابُ أبى العلاء عامةً بوصفين لازمين : أحدهما العِفة المطلقةُ . فإنك لا تجدُ فى شعره ولا نثره كلمةً من تلك الكلماتِ القبيحةِ التى شاعت فى عصره وحفظتها يتيمةُ الدهر . وتعليلُ ذلك لا يحتاج إلى إطالة القولِ .

الثانى تأثيرُ علمِ النجوم العربى فيها تأثيرًا ظاهرًا . يمثلُه كتاب اللزوميات ، وهذه التشبيهاتُ الكثيرةُ ، والأقاصيصُ المنتشرةُ فى سقطِ الزّند والرسائل . وإذ قد فرغنا من درس الآداب العلائية فلننتقل إلى علم أبى العلاء .